سلسلة الداء والدواء
(٣)

كيف نحسن التعامل مع القرآن والسنة؟

تأليف

الأستاذ الدكتور/ عمر بن عبد العزيز قريشي
الأستاذ بكلية الدعوة الإسلامية
بجامعة الأزهر

الطبعة الأولى
١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

«الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا».

و "تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا"

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له **﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ② نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ③ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ .. ﴾**[1] وأشهد أن سيدنا محمدا عبد الله ورسوله خاطبه ربه بقوله: **﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ**

(١) سورة آل عمران: ٢ - ٤ .

أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم ﴾[1] كما قال الله تعالى عنه ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين (٦٩) لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين ﴾[2].

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الأطهار الأبرار، الجيل القرآني الفريد الذين أحسنوا التعامل مع القرآن الكريم حتى صاروا قرآنيين ربانيين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد...

فهذا كتاب حول أسس التعامل مع القرآن والسنة، أو بالأحرى كيف نحسن التعامل مع القرآن والسنة، بحيث يعودان فيتبوءا مكانتهما التي أراد الله لهما: ﴿ ..كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور

(١) سورة الشورى: ٥٢ (٢) سورة يس: ٦٩-٧٠

بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾[1].

كما قال تعالى: ﴿ ..قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ۝١٥ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ ..وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[3] إنه ينبغي إعادة صياغة الحياة الإسلامية ، منهجا وفكرا وثقافة وسلوكا وغير ذلك على المنهج الأمثل في التعامل مع القرآن العظيم والسنة النبوية المطهرة، وكذلك بعودة القرآن العظيم للحياة مرة أخرى، بعد حالة الهجر والخصومة التي وقعت، وكذلك سوء المعاملة التي تفشت في أوساط المسلمين، وكذلك الاستنارة بسنة النبي محمد ﷺ.

---

(1) سورة إبراهيم: ١

(2) سورة المائدة: ١٥-١٦

(3) سورة النحل: ٤٤

ولقد جاءت فكرة هذا الكتاب، حين أسند إليَّ تدريس مادة تسمى "أسس التعامل مع القرآن والسنة" بالجامعة الإسلامية العالمية شيتاغونغ.

وقد قرر لهذه المادة كتابا "كيف نتعامل مع القرآن الكريم" لفضيلة الشيخ محمد الغزالي، وقد جاء الكتاب عبارة عن حوار بين فضيلة الشيخ الغزالي، والدكتور/عمر عبيد حسنة، وذلك بأسلوب "الشيخ الغزالي" الأدبي، وعبارته الرصينة، وقوة الفاظة، واختيار الكلمات القوية المعبرة، فيما لا يستطيع مثل طلابنا الأعاجم، والذين هم ضعاف في اللغة العربية - بطبيعة الحال- وقد علم أن من العرب الأقحاح من يعجز عن فهم أسلوب الشيخ الغزالي، فكان لابد من التلخيص، والتيسير، وتغيير أسلوب الكتاب من حوار فيه سؤال وجواب إلى تلخيص المعلومة، وتنسيقها وترتيبها على النحو الذي جاء في الكتاب بفضل الملك الوهاب.

كما قرر للمادة أيضا كتاب "كيف نتعامل مع السنة

النبوية لفضيلة الدكتور يوسف القرضاوي، فقمت بتلخيصه وإيجازه - إيـجازا شديدا- حـتى يتفق مع المقـرر الدراسي للطلاب، والله الموفق ، لا رب سـواه، وهو حسـبنا ونعم الوكيل.

كتبــه

عمر بن عبد العزيز قريشي

الجامعة الإسلامية العالمية شيتاغونغ

بنجلاديش

أولا: أسس التعامل مع القرآن الكريم

تمهيد: كيف حال الأمة مع كتاب الله تعالى؟

لماذا نتحدث عن أسس التعامل مع القرآن الكريم؟

لأن الأمة المسلمة أساءت التعامل مع كتاب ربها عز وجل، مع أنه مصدر عزها وشرفها، ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[1] وسبب هدايتها وشفائها ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾[2] ومنبع رحمتها ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[3] ومكمن موعظتها وأصل منهجها ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[4] وهو نورها إذا الدنيا أظلمت ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾[5]وروحها وسر حياتها ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾[6] ومع ذلك فإن

(١) سورة الأنبياء: ١٠
(٢) سورة فصلت: ٤٤
(٣) سورة الإسراء: ٨٢
(٤) سورة يونس: ٥٧
(٥) سورة المائدة: ١٥
(٦) سورة الشورى: ٥٢

الأمة قد أساءت التعامل مع القرآن الكريم وكيف ذلك ؟

لقد هجرت الأمة - إلا من رحم ربي- كتاب ربها، ونبذته وراء ظهرها، واشترت به ثمنا قليلاً، كما قال تعالى: ﴿ **وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا** ﴾[1] وقال تعالى: ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ** ﴾[2] .

والذين لم يهجروا القرآن أساءوا التعامل معه إذ أنزلوه من عليائه، فكانوا كمن استعاض عن الثريا بالثرى، واستبدل بالبعير بعرا، وبالرحيق حريقا، فجعلت الأمة كتاب الله للأموات لا للأحياء، يقرأ على القبور والأموات، أو يرترزق به المرتزقة على نواصي الشوارع ورؤوس الطرقات، كما تضعه المتبرجات على صدورهن ليقيهن الحسد، أو يوضع في مقدمة السيارة أو مؤخرتها ليقيها الحوادث، أو ربما جعلوه تمائم ، أو كتبوه بماء

(١) سورة الفرقان: ٣٠ (٢) سورة آل عمران: ١٨٧

الزعفـران يشرب من مـائه الضعفـاء والمسحـورون ، وكذا جـعلوه في علب القطيـفة وأهدوه في المناسـبات للأمـراء والعلمـاء ونحوهم، أو كتـبوه بخط صـغيـر في صفـحة واحدة وجعلوه في المكان للبـركة، أو على الجدران للزينة، أو تحت الوسادة للـحفظ، وكذا جـعلوه للبدء والخـتام في الحفلات وأجـهزة الإعلام، أو يقرأ بغيـر فهم ولا تدبر في صلاة التراويح مع الإسـراع وكذلك كثرة طباعتـه وزخرفته مع جعله في زواية مظلمـة من البيت أو المكتبة أو المـسجد يتراكم عليه التراب بعد أن فتح المسلمون الأوائل به مشارق الأرض ومغاربها!!

وأساءت الأمة التعامل مع كـتاب ربها إذ حفظه البعض أو حَفَظَّته أبناءها مع عدم الفهم والتدبر، فهناك أزمة فهم، وأزمة تعامل، وأزمة أمية عقلية.

إن واقع مــعظم المسلمين الـيـوم مع القــرآن مـؤرق، وعلاقتها به يحكمها الهجر والعقوق إلى درجة نخشى معها أن نقول إن علل الأمم السـابقة التي حذر منها القـرآن ونبه

إليها الرسول ﷺ تسربت إلى العقل المسلم كما قال تعالى: ﴿ ومِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إلا أَمَانِيَّ ﴾[1] أي لا يعلمون الكتاب إلا تلاوة وترتيلا. قال ابن تيمية - رحمه الله- عن ابن عباس وقتادة، في قوله" أميون" أى: غير عارفين بمعاني الكتاب، يعلمونها حفظا وقراءة بلا فهم، لا يدرون ما فيها. وقوله "إلا أماني" أى : تلاوة لا يعلمون فقه الكتاب، إنما يقتصرون على ما يتلى عليهم.

والأمية العقلية هذه تسود الأمة في حال التقليد ، والغياب الحضاري، والعجز عن تدبر القرآن، والتعامل مع الأحداث، واتخاذ المواقف، واكتشاف سنن الله في الأنفس والآفاق، وحسن تسخيرها، ومعرفة كيفية التعامل معها، والنفاذ من منطوق النص وظاهره إلى مقصده ومرماه.

إنها الأمية العقلية التي تعيشها اليوم مع القرآن، والتي تعني ذهاب العلم على الرغم من تقدم فنون الطباعة، ووسائل النشر وتقنيات التسجيل.

(١) سورة البقرة : ٧٨

ولعل فيما يـذكره ابن كثير رحمه الله عنـد تفسير الآية الثالثـة والستين في سورة المـائدة في الجدال الذي وقع بين الرسول ﷺ وصاحـبه «زياد بن لبيد»، مؤشرا دقـيقا على الأمية العـقلية التي صرنا إليها مع كتـاب الله. فعن الإمام أحمد ـ رحمه الله: " ذكر النبي ﷺ شيئا، فقال: " وذلك عند ذهـاب العلم، قـلنا : يا رسـول الله، كـيف يذهب العلم، ونحن قـرأنا القـرآن ونقـرئه أبناءنا وأبناؤنا يقـرئون أبناءهم؟ قال: " ثكلتك أمك يا ابن لبيد، إن كنت لأراك من أفقـه رجل في المدينة ، أو ليس هذه اليهـود والنصارى بأيديهم التوراة والإنجيل ولا ينتفعون مما فيهما بشئ" ؟[1].

وقد تكون مشكلة المسلمين اليوم في منهج الفهم الموصل إلى التـدبر وكـسـر الأقـفـال من على العـقـول والقلب، ويتخلصوا من الحال التي استنكرها القرآن ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها** ﴾.

إن مـوقف المسلمين من القـرآن الذي شـرفوا به يـثيـر

(١) مسند الإمام أحمد بسند صحيح.

الدهشة، فمن عـدة قرون ودعوة القرآن مجـمدة، ورسالة الإسلام كنهر جف مجراه، أو بريق خمد سناه.!!

والأمة التي اجـتبـاها الله تتعـامل مع القرآن تعـاملا لا يجوز السكوت عليه.

كان الجـاهلون الأقدمون يصـمون آذانهم عن سمـاعه، ويتـواصون بـالشغب علـى مجـالسـه، ويعلقـون بتكذيب صاحبه، أما المسلمون المتأخرون فهم يسمعون وقد يتأوهون أو يسكنون ولكن الـعقـول مـخدرة، والحـواس مـبـعثـرة ومسـالك الأفراد والجمـاعة في واد آخر وكـأنها تنادي من مكان بعيد!!

لقد كان المسلمون الأولون يقرأون القـرآن فيرتفعون إلى مسـتواه.. أما نحن فنقرأ القـرآن فنشده إلى مسـتوانا وهذا ظلم للكتاب.

والأمة المنتمية إلى القرآن مجهولة مستوحشة، والحضارة التي يصنعها لا تجـد من يصور معالمها بإتقـان ولا من يعبد طريقهـا بذكاء، ولا من يفـتح لها دكانا صـغيـرا في سوق

امتلأ بلافتات خداعة لسلع ما تساوي شيئا أو مذاهب باطلة بالتعبيـر الصريح، أهكذا يتصـرف أصحـاب الحقيـقة مع الحقيقة التي شرفوا بها وانتموا إليها؟

وأجد غياب بعض صفات عباد الرحمن التي وردت في القـــرآن الكريم، من أنـهم قـوم يـقـبـلون على القـــراءة بحواسـهم، فهم يسمعـون ويبصرون، ومن ثم يتحـركون ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾[1] وأجد اليوم أن الذين يخرون صـما وعميانا كثيرون، فالأمم الأخرى أدركت حال المسلمين مع كتابهم، لذلك وجـدنا إذاعات عالميـة تحدد فـترات لإذاعـة القرآن، فإذاعة " لندن" تقدم تلاوة يومية للقرآن تفتتح بها برامجها، وربما تذيع "إسـرائيل" أيضا قـرآنا في فتـرات ومناسبـات متـعددة، وكأنهـا أطمأنت إلى أن الأمـة الإسلاميـة اليوم تسمع ولا تعي.

(١) سورة الفرقان : ٧٣

هذا موقف لابد أن نحسمه، وأن نبتعد عنه، ونعالج أسبابه.

لذلك وجدنا الأمة الإسلامية عندما هجرت كتابها، أو - على الأقل- أخذت تقرأه على أنه تراتيل دينية، فإنها فقدت صلتها بالكون، وكانت النتيجة: أن الذين درسوا الكون خدموا به الكفر، واستطاعوا أن يسخروه لأنفسهم، ومبادئهم، وإلحادهم، وتثليثهم.

أما نحن، ومع أن كتابنا كتاب الفكر، والتفكير فريضة إسلامية- كما قال العقاد- ومع أن كتابنا كتاب تجاوب مع الكون بحيث لم نر كتابا سماويا أو مقدسا - كما يقولون- نوه بعظمة الله في كونه، أو بعظمة الكون لأن الله هو الخالق، كالقرآن الكريم.

ما الذي صرفنا عن هذا كله؟ صرفنا عنه أننا ما أحسنا التلقي والتعامل مع القرآن أبدا، بل كنا نقرأ وكنا نعتبر الخطأ الكبير فقط ألا يمد القارئ المد اللازم ست حركات، أو لا يغن الغنة، أو لا يخفي الإخفاء، وكل ذلك يمكن أن

يكون وسائل لحماية الأداء القرآني ليكون محلا للنظر والترتيل. أما وعي المعاني وإدراك الأحكام والتحقق بالعاطفة المناسبة من خلال تشرب معاني القرآن، فقد اختفى من نفوسنا.

هذا شيء لابد أن نبدأ به كل كلام عن القرآن الكريم وحسن التعامل معه لتشخيص دائنا، ومعرفة دوائنا، وإلا فنحن معزولون عن ديننا وعن مصدره، وحقيقته، وما استطعنا أن ننقل هداية القرآن للقارات الخمس، هناك في عصرنا ما يزيد على خمسة مليارات من البشر محجوبة عن أضواء القرآن، لا تعرف عنه شيئا، والسبب أن المسلمين أنفسهم محجوبون عن أضواء القرآن، «**وفاقد الشيء لا يعطيه**»!.

الفصل الأول

كيف تحسن الأمة التعامل مع القرآن الكريم؟

القران الكريم الـذي هو كتاب الله تعـالى، المنزل على قلب النبي محـمد ﷺ، المتعبـد بتلاوته، المتحدى بأقـصر سـورة منه المجمـوع بين دفـتي المصحف، من أول سـورة الفاتحة وإلى آخر سورة الناس .

هذا الكتاب المبين هو نور الحياة وروحها كما قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾[1] فيـجب أن يكون كذلك ، وينبـغي أن يقوم العمل على إصلاح مناهج فكر المسلمين، وإعادة بناء النسق الثقافي الإسلامي كله بعلومه الاجتماعية والإنسانية وغيرها على المنهج الأمثل للتعامل مع القـرآن الكريم كمصدر أول وأهم بالنسبة للمسلم.

---

(١) سورة الشورى: ٥٢

يجب أن نعود إلى القرآن لنستقي منه العلم والمعرفة الدقيقة السليمة في نظرته إلى الإنسان والحياة والوجود، في الفطرة الإنسانية والاجتماعية في قضايا الفرد والأسرة والمجتمع والعلاقات والنظم.

وكذلك تأصيل منهج للاستفادة من القرآن في بناء الثقافة والحضارة الإسلامية المعاصرة، ومحاولة فهم مناهج القرآن العظيم وطرائق التعامل معه، وكيفية جعله المصدر الأول لثقافة المسلم المعاصر، كما كان عند السلف الصالح ومعرفته وعلمه وتوجيهه، وقضايا تفسيره وتأويله، وتصنيفه وتبويبه، وعلاقته بعلوم المسلمين قديما وحديثا وعلاقتها به، وغير ذلك، مما يُمكِّن عقل المسلم من العودة إلى التعامل السليم مع القرآن الكريم، ويعيد القرآن العظيم إلى مركز الدائرة في ثقافة المسلم المعاصر، ومعرفته وحضارته، ليستعيد العقل المسلم عافيته، ويسترد القرآن المجيد دوره في عطائه وإثارته.

لابد من عودة إلى القرآن العظيم وعودة الحياة إلى

القرآن، وذلك بإعادة القرآن العظيم يسود ويقود، ويحكم وينظم، ويصدق ويهيمن.

لابد من انهاء حالة الهجر والخصام، والبعد والفصام الذي بيننا وبين ربنا الملك العلام، حتى لا يشكونا الرسول عليه الصلاة والسلام ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً﴾[1] وذلك بأن نقرأ القرآن الكريم ونتلوه حق تلاوته كما أمر الله بذلك ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩١) وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ (٢٩) لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾[3]

---

(١) سورة الفرقان: ٣٠

(٢) سورة النمل: ٩١-٩٢

(٣) سورة فاطر: ٢٩-٣٠ .

وقال النبي ﷺ " من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول" الم" حرف ولكن "الف" حرف، و"لام" حرف، و"ميم" حرف"[1]

هذا . . . وتلاوة القرآن لا يجوز أن تكون كقراءة المعلقات أو أي كتاب، كما أنها لا تقوم على الهذرمة، والقراءة اللغوية، أو السرعة بقدر الإمكان، والاهتمام بالانتهاء من أكبر قدر ممكن . . ونحو ذلك، ولكن ينبغي أن نرتل كتاب الله تعالى كما أمر سبحانه بذلك ﴿ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ﴾[2] بما يعنيه الترتيل من تجويد الحروف، ومعرفة الابتداء والوقوف، ولهذا علم خاص مستقل به، ولأن هذا الترتيل يكون مقدمة لفهم القرآن وتدبره، وهو المقصود الأهم، والهدف الأكبر، فإن الله تعالى قال: ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾[3] كما قال تعالى أيضا: ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا ﴾[4].

(١) رواه مسلم
(٢) سورة المزمل: ٤
(٣) سورة ص: ٢٩
(٤) سورة النساء: ٨٢

وقال تعالى: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[1].

فهذا بيت القصيد ندندن حوله في هذا الكتاب، وإن كان هذا لا يقلل من أهمية العمل بعد العلم، وكذا الحكم بكتاب الله، والاحتكام إليه، فهذا جانب أهم في حسن التعامل مع كتاب الله تعالى. ولكن نركز هنا على جانب التدبر لكتاب الله تعالى، لمعرفة شمول الرؤية القرآنية، وبيان السنن القرآنية وقوانينه الثابتة المسطرة في آياته والمنظورة في الكون من حوله الذي دعانا للنظر فيه ومعرفة أسراره واكتشاف مجاهيله وغوامضه، والمطروح بإلحاح: كيف يمكن التعامل مع القرآن ، وتدبر آياته والإفادة من معطيات العلوم والآت فهمهما ليكون القرآن مصدر المعرفة، وفلسفتها في شعب العلوم الاجتماعية جميعا.

حيث لابد لنا من العودة إلى القرآن كمصدر لمعارف الحياة، وفقه المعرفة، والحضارة للقيام بدورنا بمسؤولية الشهادة على الناس والقيادة لهم، وإلحاق الرحمة بهم، واستئناف السير الذي توقف من عهد بعيد في كثير من

(١) سورة محمد: ٢٤

شعب المعرفة التي يمنحهـا القرآن الذي يشكل محاولة لكسر أقفـال القلوب، وفتح النوافـذ أمام العقـول ووضع الأغلال والأصار التي أثقلت الكواهل وأوقفت فاعلية العقل المسلم. ولذلك أجد قـول الله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾[1] يـعنـي :الـوعـي والإدراك والتذكـر والتدبر. . فـأين التدبر؟ وأين التـذكر مع تلك التلاوة السطحية التي ليس فـيها أى إحساس بالمعنى أو إدراك للمـقـصـد، أو غوص فـيـمـا وراء المعنى القـريب، لاسـتنتـاج مـا هو مطلوب لأمـتنا من مـقـومات نـفسـيـة واجتـماعيـة، تستعـيد بها الدور المـفقود في الشـهادة على الإنسانية وقيادتها إلى الخير؟.

لابد من قراءة القـرآن الكريم قراءة مـتدبرة واعيـة تفهم الجملة فـهمـا دقيـقا، ويبذل كل امـرئ ما يسـتطيع لوعى معناها وإدراك مقـاصدها، فإن عز عليـه سأل أهل الذكر، والمدارسة للقرآن مطلوبة باستمرار. .

---

(١) سورة ص: ٢٩

ومعنى مـدارسة القرآن: القراءة والفهم والتـدبر والتبين لسنن الله في الأنفس والآفاق ومقـومات الشهود الحضاري، ومـعرفة الوصايا والأحكام، وأنواع الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، وما إلى ذلك مما يحتاج المسلمون إليه لاستئناف دورهم المفقود.

إن أثر القـرآن يجب أن يكون واضحـا في حيـاة المسلم الذى يقرأه، كما كان واضحا في حياة من أنزل عليه القرآن ﷺ حيث " كان خلقه القرآن"[1] كما روت السيدة عائشة رضي الله عنها، ومعروف أن مـعنى الكلمة أنه كان يعيش في جو قرآني ويصدر في سلوكه عن قيم القرآن، وأن عقله الظاهر والباطن مع الله عندما يكون الحديث عن الله، ومع الكون سياحة عـريضة وتأمل وتدبر لآلاء الله عندما يكون الحـــديث عن الكون وقـــواه وأسـراره، ومـع الماضين في الاتعاظ والاعتـبار بمصارعهم ومصائرهم ومـسالكهم عندما يكون الحـديث في قـصص القرآن، ومع الآخـرة والنعـيم والجحـيم عندما يكون وصفـا للجزاء الأخروي، ومـا أعد

(١) رواه البخاري.

لهؤلاء وأولئك أي أن النبي ﷺ كان يحيا في جو القرآن، وهذا هو ما جعل الإمام الشافعي رحمه الله يقول "إن السنة هي فهم النبي ﷺ للقرآن، أو نضح فهمه للقرآن، فهو مرتبط به ارتباطا تاما في حياته في ظاهره وباطنه.
والأمة التي نزل عليها القرآن فأعاد صياغتها، فهي المعجزة التي تشهد للنبي ﷺ بأنه أحسن بناء الأجيال، وأحسن تربية الأمم، وأحسن صياغة جيل قدم الحضارة القرآنية للخلق. فنحن نرى أن العرب عندما قرأوا القرآن تحولوا تلقائيا إلى أمة تعرف الشورى وتكره الاستبداد، إلى أمة يسودها العدل الاجتماعي ولا يعرف فيها نظام الطبقات، إلى أمة تكره التفرقة العنصرية ، وتكره أخلاق الكبرياء والترفع على الشعوب. وجدنا بدويا كـ"ربعي بن عامر" رضي الله عنه» يقول لقائد الفرس: «جئنا نخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

إنهم فتح جديد للعالم وحضارة جديدة أنعشت الإنسانية

ورفعت مكانتها، لأن الأمة الإسلامية كانت في مستوى القرآن الكريم، والحضارة الإسلامية إنما جاءت ثمرة لبناء القرآن للإنسان.. القرآن الكريم كتاب يصنع النفوس، ويصنع الأمم، ويبنى الحضارة، هذه قدرته، هذه طاقته، فأما أن يفتح المصباح، فلا يرى أحد النور، لأن الأبصار مغلقة، فالعيب عيب الأبصار التي أبت أن تنتفع بالنور، والله تعالى يقول: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1]

(١) سورة المائدة: ١٥-١٦

المبحث الأول

شمول الرؤية القرآنية:

لابد من انطلاقة جديدة منبثقة من الرؤية القرآنية والسنن الكونية، حيث لا يجوز أن تنحصر الثقافة القرآنية في عدد من المدارس دون الأخرى، لأن الثقافة الإنسانية بالصورة التي انتهت إليها الآن لا تسر مسلما حريصا على ثقافته، لأنها ابتعدت عن الينابيع الأصلية من الكتاب والسنة، وتوقفت عند الحدود التي جمدت عندها مدارس الفكر الإسلامي بما عابها من قصور وشانها من أخذ بالإسرائيليات والأحاديث الضعيفة والموضوعة، وذلك للبعد عن النبع الصافي والمنهل العذب، ومن ثم فنحن بحاجة أن ننقى تفاسير القرآن من ذلك ، وأن نتعرف على شمول الرؤية القرآنية، وأن نقدم التصور الحضاري للقرآن الذي يبني أمة ويفتح أبصارها على الكون ويمنحها الرؤية المتميزة التي تمكنها من الشهود الحضاري على مختلف الأصعدة.

فالقرآن يمنح المسلم رؤية كاملة ومنهجا متماسكا يجعل من الحياة خطوطا متوازية لا تصطدم مهما امتد الزمن، فتجعل العلم مع الإيمان، أو يجعل ما وراء المادة مع المادة، أو تجعل السرائر الباطنة مع المشاعر الحسية لا فواصل بينها، وكل هذا في يسرية وعدم تكلف في التعامل مع القرآن الكريم، كما قال تعالى لصاحب الرسالة المبين عن ربه: **﴿قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين﴾** ونحن قدمنا الدين تكلفا بدلا من أن نقدمه سهلاً جميلا وفطرة سهلة، وهذا من الظلم للحقيقة عندما تخرج عن صفتها الأولى، الدين عندنا فطرة، كما قال تعالى: **﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ..﴾**[1] الكون هو الكون كما خلقه الله وفطرته هي فطرته كما خلقها الله، والكون والفطرة هما خلق الله، لا ينبغي التبديل ولا التغيير، بل يجب التجاوب معهما، أما الكفر أو الشرك أو الإلحاد فهو عوج عن الفطرة واصطدام بالعقل والكون وخروج عليه، نريد

(١) سورة الروم: ٣٠

أن نعرف الدين على هذا المعنى القرآني السليم الصحيح، لا يفهم الدين من خلال تقاليد الأحبار والرهبان التى اعتبرها القرآن صدا عن سبيل الله، فوظيفة الراهب مثلا قيادة الناس إلى الله، ولكنه في واقعه صدهم عن دين الله، كما قال الله: ﴿ ..إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ.. ﴾[1].

وعدد من المتدينين أو المتفيهقين أو المنتسبين إلى الدين بعيدا عن التحقق بالرؤية القرآنية المتجاوبة مع فطرة الخلق هم صداد عن سبيل الله بهذا المسلك الذي يقدمون به الدين، إنهم يبتعدون عن فطرة الدين ومصادره العقلية والدينية، فالله سبحانه وتعالى يبين أن حقائق الدين تتجلى وتتكشف من النظر والتدبر لآيات الله المبثوثة في الأنفس والآفاق :﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾[2] فأين نحن من ارتياد الآفاق، وكشف الآيات، وأين نحن من حسن قراءة أنفسنا، ومعرفة سنن الله وآياته منها في ضوء الأبعاد الواردة في القرآن؟!!

(١) سورة التوبة: ٣٤ (٢) سورة فصلت: ٥٣

لو التـزمنا الرؤية القـرآنيـة وذهبنا نتـدبر آيات الله في الأنفس لكان عندنا «علم نفس» الذي يعرف عـظمة الخالق عندما فطر هذه النفس وخلق الإنسان من قبضة طين ونفخة روح ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي..﴾[1] وكل بشر نفخـة من روح الله، فنبدأ ندرس النفس الإنسـانية والفطرة السليمة وما ينميها ويزكيها من وسائل ووسائط وما يعتريها من أمراض وإصابات لابد من معرفة أسبابها وتقديم العلاج التربوي الناجح لها، فعلم النفس مـا درس دراسة صحيحة إلا بعد أن تحـرر من الفلسفـة الإغريقيـة، وبدأ يغوص في آفاق النفس البشرية ليتعرف على دوافعـها ونوازعها معتمدا أسلوب استبطان الإنسان.

والتـصوف عندنا لو التـزم الأدب الإسلامي والضـوابط الشرعيـة ولم يمش وراء الرهبنة المسيحية لكان عطاؤه كـبيرا ورواؤه مثمرا حيث كان عنـدنا" الحارث المحاسبي" غواصا في آثار النفس، وجاء بعـده" الغزالي" غواصـا في أسرار النفس، وكـــان من الممكن أن، يـقـوم عندهم عـلم نفس

(١) سورة ص: ٧٢

جيـد، ويقدم للبشرية بديلا مـقنعا ويخلصهـا من الشذوذ الذي يعـتـمد أصـلا نفـسيـا يحلل على أسـاسـه السلوك البشـري، من مِثل مـدرسة « التـحليل النفسي» الـتي كان رائدها "فـرويد" الذي يـقـول: إن رضـاع الولد أمـه رواء وتنفيس عن غريزة حيوانية!!

إن التـقـريب بين الدراسـة القرآنيـة وبين مـا وصلت إليـه الإنسانـية وحضـارتها يحـتاج منا أن ننخلع قليـلا عن بعض مواريثنا القـديمة التي ليست من ثوابت الديـن وقيمـه الأصيلة والإفادة من الوسائل الحديثة ومـا وصلت إليه من ناحية وسائل فـهم الكون، ومن ناحـيـة مـردود النظر في نفس الإنسـانيـة واعتماد كثير منها بعد ضبطها بمبادئ الإسلام ومقاصده الكلية، كمـا أننا نحتـاج للتحـقق بالرؤية الشامـلة الموضوعيـة وليس الموضعية.

حيث أمـامنا هذه المناهج من مواريثنا الثـقافيـة كمناهج أصول الدين في استنباط الحكم ومناهج الفقهاء التي انبنت على مناهج الأصـوليين، ومناهـج المتصـوفـة- وإن كنا لا ندري إلى أي مدى يمكن أن نسمى مدارس التصوف منهاج

- إنها لا توجد لها ضوابط منهجية، وإنما قد تعتمد على التأملات وخطرات القلوب- ومناهج اللغويين.

والأمر المطروح هو كيف نفيد من هذه المناهج في العودة إلى النبع الأصل القرآني، بحيث لا يخرج هذا المنهج عن كونه اجتهادا حقق أبعادا طيبة في تحقيق الرؤية القرآنية.

وإن كان هذا لا يمنعنا من أن نقول: إن هناك مناهج نقلناها من أصلها الأول ومجالها إلى علوم أخرى فأفسدناها، فالقصص القرآني يسوق القصة يريد أن يخلص منها في النهاية إلى تربية نفس معينة، ولكن صار الاهتمام بالقصة وأفسدتها الإسرائيليات. لقد تقلصت في ثقافتنا الإسلامية الرؤية القرآنية الشاملة واختزلت المحاور، والمقاصد، وأصبحت المصادر الإسلامية تقرأ على أنها فقه، ليس بمعناه العام وإنما بمعناه الاصطلاحي فقط، وهذا ليس صحيحا لأن كل أفق من هذه الآفاق له صبغته وله منابعه وله هدفه الذي يسير إليه، فلابد من تدبر القرآن حسب رؤيته الشاملة، وآياته الواسعة مع التعرف على سنن الكون وقوانينه من منظور قرآني صحيح.

المبحث الثاني

السنن الربانية والقوانين القرآنية:

إن مـوضوع القـرآن هو الإنسان، ومـحل آيات الله هو الكون، ولابد للإنسان من التدبر في القـرآن والتعرف على سنن الكون وقوانينـه التي لا يتحقق بدون إدراكـها تعمـير الأرض..

إن الأمة الإسـلاميـة بحاجـة إلى فهم السنن القـرآنية، فالسنن الاجتـماعية في القرآن هي القـوانين المطردة والثابتة التي تشكل إلى حد كـبير مـيكانيكية الحركـة الاجتماعـية وتعين على فهمهـا ، وكلمة سنة تعني القانون المطرد الذي لا يتخلف إلا في قـضايا السنن الخارقة، أمـا السنن الجارية فـلا تتخلـف وإن كان لا يرى اطرادها واضـحـا وصارمـا كقـوانين المادة وقد تكـون حاجة المسـلمين اليوم لفـهمـها وحسن التعامل مـعها وتسخيرها للقيام بأمـانة الاستخلاف وتعميـر الأرض أشد من حاجتهم للحـكم التشريعي الذى

تضخم حتى شمل الإسلام بأبعاده كلها، مع أن الحاجة إليه تأتي ثمرة لإعمال هذه السنن، فكيف يمكن الوصول بالمفكر الإسلامي لإدراك هذه السنن من القرآن الكريم والسنن والتحقق لأبعادها حتى تصبح فقها تغييريا ومناخا تربويا يمكن أن تنشأ عليه أجيال من خلال النظر في القرآن وتلاوته مع الإفادة من التبصر في عمل هذه السنن في الأمم السابقة ﴿ . .ولَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾[1]

إن القرآن الكريم نبه أنه كما توجد سنن كونية في إطار المادة تجعل درجة الغليان مثلا عند المائة درجة، ودرجة التجمد عند الصفر، وتجعل للغازات ضغوطا معينة. . كذلك الأمر في الحضارات البشرية وانهيارات الأمم وانتصاراتها، إنها تخضع لقوانين لا يمكن أن تتبدل، ولقد نبه القرآن إلى هذا ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلاَّ نُفُوراً ﴿٤٢﴾ اسْتِكْبَاراً فِي الأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ

(١) سورة الأحزاب: ٦٢

إلاَّ بأهْله فهَلْ يَنظُرُونَ إلاَّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً ﴾[1].

سنن الله في المجتمعات هي صور أخرى مكملة أو امتداد طبيعي لسننه في ميادين العلوم التطبيقية وإن كانت كيمائية أو فيزيائية أو نباتا أو حيوانا أو أي شيء ، ليس هناك فوضى في الكون، من ناحية البناء العلمي له، ومن ناحية الانطلاق الحضاري سنن قائمة بيقين وسنن ثابتة، وقد انطبقت هذه السنن على صاحب الرسالة نفسه نصرا وهزيمة، فعندما قصروا فى اتخاذ الأسباب المطلوبة لاستكمال النجاح في غزوة "أحد" هزموا، وقيل لصاحب الرسالة **﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ ﴾**[2].

وإذا استكملوا أسباب الانتصار انتصروا، وما يتصور أن أمة من الأمم تحابي أو تستثني من هذه القوانين، وقد طبقت هذه القوانين نفسها على أمتنا خلال الأربعة عشر قرنا من تاريخها.

(١) سورة فاطر: ٤٢-٤٣ (٢) سورة آل عمران: ١٢٨

كما ذكر الله عز وجل نماذج لهذه القوانين من مثل قوله تعالى: ﴿ . . إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ . . ﴾[1].

وهذه السنة المطردة ذكر بها القرآن عند هزيمة المشركين في غزوة بدر، فقال الله: ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٥١) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٥٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[2]

فقيل للمشركين هذا الكلام، أي أنكم هزمتم لأن القانون الذي انطبق على الفراعنة من عشرين قرنا انطبق عليكم، وينطبق على المسلمين بعد ذلك في أحد، حيث يقول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ

(١) سورة الرعد: ١١
(٢) سورة الأنفال: ٥١-٥٣

ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾[1].

فهناك قوانين كثيـرة ذكرت في القرآن الكريم، منها قوله تعـالى: ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ.. ﴾[2] ومنها: ﴿ ..إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (٨١) وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾[3] ومنهـا ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾[4] ومنها ﴿ ..إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾[5].

ومنهـا ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا ﴾[6] آيات كثـيرة في القرآن الكريم هي قـوانين لابد أن تنطبق على العدو والصديق، ومحاولة الافـلات من هذه القوانين محاولة فاشلـة بل ميئـوس من نتائجـها، وعندمـا يقول الله تـعالى:

(١) سورة آل عمران: ١٥٢
(٢) سورة فاطر: ٢ .
(٣) سورة يونس: ٨١-٨٢
(٤) سورة محمد: ١
(٥) سورة يوسف: ٩٠
(٦) سورة النساء: ١٢٣

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾[1].

فإن هذا القدر المعلوم يفرض نفسه، ونضرب مثلا في حياتنا العامة، فنحن نعلم أن القطن يزرع خلال ثمانية أشهر في السنة، فمهما بذلت جهود لمحاولة أن تجئ بالثمر قبل أوانه فذلك مستحيل، فيوم أن يهزم المسلمون كان يجب أن ينهزموا، فسنن الله لا تجامل أحدا ولا تلين لمن يدعي أنه ابنه أو حبيبه كما زعمت اليهود والنصارى فقالوا: ﴿ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾ فقيل لهم: ﴿ .. قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ .. ﴾[2]

فهذه القوانين لابد أن تأخذ مكانها الصحيح من عقلنا، ولابد أن نحترمها حيث وجد - للأسف- في الأمة الإسلامية خطر قديم ولا تزال آثاره باقية إلى اليوم وهو شيوع فلسفة الجبر وهي فلسفة عطلت قانون السببية تعطيلا كاملا فترتبت عليه آثار مدمرة حيث تخلفنا في عمارة

(1) سورة الحجر: ٢١ .
(٢) سورة المائدة: ١٨

الأرض، وعطلته في السنن النفسية فسادنا التواكل وانطفاء الفاعلية، فهذا من أسباب انهيار الحضارة الإسلامية، وعقيدة القدر التي كانت يوما ما سبب انطلاق الأمة الإسلامية دون أن تهيب الإمبراطوريات الضخمة وقرعت أبوابها بآيات الله وهي لا تبالي، واستسلمت هذه الأمم أمام العطاء الروحي والثقافي والحضاري للقادمين أي من المسلمين، فهل يصح أن تتحول هذه العقيدة- أي عقيدة القدر- إلى عقيدة غريبة مسخت الكتاب والسنة، وأصبح الناس ينظرون إلى أنفسهم على أنهم ريش في مهب الريح أو جيف ملقاة في البحر تتقاذفها الأمواج كما تشاء، مع أن الله يقول ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[1].

إن الأمة الإسلامية لما غاب وعيها لهذه القوانين ونسيت المعنى أصبحت تتلقى الانتصارات والهزائم دون وعي ودون استفادة ودون البحث في أسباب النصر وعوامل الهزيمة. وران

(١) سورة الإسراء: ١٤ .

عليها هذا حتى في كتـابة التاريخ، فهي لا تكاد تعى ما يقع بهـا من مآسي، وأنا أنظر الآن فـأجـد أن المسلمين تنزل بهم النكبات التي تقصم الظهر ثم تنتهي بغير شيء، لم؟!!

فمأسـاة الأندلس -مثلا- كانت مأسـاة بكل المقاييس ، ولكن تم التعليق عليها بقصيدة:

لكل شيء إذا ما تم نقصان فلا يغر بطيب العيش إنسان

هل هذا هو التعليق ؟ أين تعليق العلماء والأمراء والساسة والقادة ؟ والنظر في هذا كله نظرة فيهـا محاسبة للنفس؟ أين الدروس والعـبر؟أين معـرفة أسـباب الهـزيمة هنا؟!! إنه إذا أفلست شركة مثلا فإن التـقرير يوضع عن أسباب الإفلاس ، فكيف لم توضع أي تقارير عن فـساد الأمة الإسلامـية الذي أدى إلى هزيمتـها في الأندلس أو في غـيرها، وعن انحـسار هذه الأرض وضيـاعها، أو سـقوطنا في قبـضة الاستعـمار العـالمي الذي لا يرحم؟ فكيف ولماذا؟ كل شيء يستـدعى أن نفكر تفكيرا جادا في الطريقة التي نعيش بها.

نحن ما فهمنا سنن الله الكونية في الأرض حسب منطق التجربة والاستقراء والملاحظة وهو المنطق القرآني الذي عرف من كتاب ربنا، ومن تطبيقات نبينا، ولا أحسنا الاستفادة من سنن الله في الحضارات والمجتمعات، وكانت النتيجة أن سقطت الأمة بقضها وقضيضها في قبضة استعمار عالمي لا يرحم، وهي الآن تحاول الخلاص من شباكه وترمي بأجنحتها العالقة داخل الشباك دون أن تخرج.

لقد واجهت الأمة الاستعمار مواجهة عسكرية وسياسية لكن لم تنتبه إلى القضية الأخطر وهي أن الخلل الفكري وانهيار عالم الأفكار وعدم التبصر هو الذي يمكن الاستعمار.

إن الأمة لن تخرج من الشباك إلا بقوانين مكتوبة عندها في الوحي النازل عليها، يجب أن تدرس وبالتالي يجب عليها أن تعيد حساباتها عن ماضيها بعد أن تعرضت للاضمحلال والانحلال عندما فرطت في سنن الله الكونية

والاجتـماعـية، وظنت أن المواجهـة العسكرية والسـياسـية العمـياء فقط كافـية في استـئناف النهوض مع إدراك السنن وحسن التعامل مـعها وتسخيرها وانتقالهـا من موقع المعرفة والفكر إلى موقع الفعل والتطبيق.

المبحث الثالث

السنن الإلهية في القرآن الكريم:

لقد تحدث القرآن الكريم عن السنن التي تسير الحياة والأحياء، وهي قوانين تحكم الحركة التاريخية والاجتماعية والنفسية، لقد تحدث عن سقوط الأمم ونهوضها، وغالبا ما يجئ ذلك في أعقاب القصص القرآني، وأكد أن هذه السنن جارية على الناس جميعا، وأن اكتشافها والتعامل معها أمر لابد منه للشهود الحضاري- أي عمارة الأرض والقيام بأعباء الاستخلاف الإنساني- والشهادة والقيادة للناس استجابة لقوله تعالى: ﴿ ..لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ.. ﴾[1] واكتشاف السنن هو الذى مكن العالم المتقدم من التقدم والتحكم، وغفلة المسلمين كانت سببا للانحطاط والسقوط والتخلف، وأصبحوا مُسَخَّرين بدلا من أن يكونوا مُسَخِّرين.

---

(١) سورة البقرة: ١٤٣

ومن السنن التي تحدث عنها القرآن: سنة التدرج، وسنة الأجل، وسنة التداول الحضاري، وسنة المدافعة، وسنة التسخير وسنن أخرى في الآفاق والكون.

وقد أشار القرآن الكريم لهذه السنن بقوله تعالى: ﴿..فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾(١).

(١) **سنة التدرج:** لما كان الإيمان بضعا وسبعين شعبة ، فإنه ينبغي أن نبدأ بالأهم فالمهم، ونأخذ الناس بطريق التدرج كما فعل القرآن وهو يعرض تعاليمه على الناس.

والتدرج سنة قرآنية لها أبعاد تربوية لابد من إدراكها حتى يمكن تبليغ دعوة، وإقامة حضارة، فلابد من أن أعلم الإسلام على مراحل بحيث أصل إلى الإسلام كله ولكن بالطريقة التي أقرب بها الإسلام في القلوب والمجتمعات وهذا ما يمكن أن أسميه «سنة التدرج»، والمطروح هنا هو التدرج في التطبيق، أما التشريع فأمره استقر عند الحكم

---
(١) سورة فاطر: ٤٣

النهائي بعد أن أكمل الدين، ونماذج التدرج في القرآن واضحة في مثل آيات تحريم الخمر وتحريم الربا، وجاء هذا التدرج في مجال التشريع دون مجال العقيدة والعبادة.

ونلمح أبعادا لسنة التدرج في حديث" معاذ بن جبل" - رضي الله عنه- عندما أرسله النبي ﷺ إلى اليمن فقال له: «إنك ستأتي قوما أهل كتاب فادعهم إلى "لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله" ، فإن هم استجابوا لذلك فأعلمهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة، فإن هم استجابوا لذلك فأعلمهم أن الله فرض عليهم زكاة أموالهم، تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم، فإن هم استجابوا لذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم فإنها ليس بينها وبين الله حجاب»[1] .

ما يلمح من قضية بعث «معاذ» هو تدرج تربوي وتعليمي فيه الانتقال من قضية إلى أخرى مع أهمية الاحتفاظ بالقضايا الجوهرية.

(١) رواه البخاري ومسلم.

التـدرج في التعليم أمـر بدهي لأني لا أعرض الصـلاة على من لم يؤمن باللـه سبـحانه وتعـالى، فـإذا آمن بالله تعـالى بدأت بما يلي الإيمان وهو أول العـبـادات، ثم أجئ بعـد ذلك إلى الزكـاة. . وهكـذا فـأرى أن هذا ترتيب في تقديم الأدوية لـكن لابد منها جـملة، فالتدرج فـي القرآن كان لابد منه لتربية الناس وتعليمهم.

(٢) سنـة الأجل: وسنة الأجل قد تكون قـريبة من سنة التـدرج ، فلكل شيء أجل مـعلوم ولا يمكن اسـتـعجـال الأمـور واختـصارها قـبل الأوان، نفهم هذا من قـول الله تعالى: ﴿ . .**لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ**. . ﴾[1] وأيضا ﴿ . .**لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ** ﴾[2] وكذلك ﴿ . .**وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ** ﴾[3] والأمور مرهونة بأوقاتها، ومع ذلك يغـفل بـعض الدعـاة اليـوم عن سنـة الأجل ويغلب عليـهم استـعجـال النتائج دون وضع المقـدمات، وكـأنهم

---

(١) سورة يونس: ٤٩

(٢) سورة الرعد: ٣٨

(٣) سورة العنكبوت: ٥٣

يتعاملون مع سنة خارقة، واللـه سبحانه تعالى مع أنه يملك كل شيء، لكنه قال: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾[1] لماذا القدر المعلوم! لمصلحة الناس تمشيا مع حكـمة أن العطاء يكون على قدر ما يحـتاج إليه الإنسان، ودائما لابد من التقدير، فالماء إذا كثر فى الزراعة أماتـها، وإذا كثـر حول الناس أغـرقهم، فـلا بد من الماء ولابد أن آخذ منه بالقدر الذي احتاج.

فالزمان جـزء من العلاج، والزمن هو في الحقيـقة بُعد رابع من الطول والعـرض والعمـق، ولابد منه لاستكمـال الصورة ، فالوقت المحدد ضرورة لابد منها في العمل حتى لا تبقي الخطة المأمولة سائبة .

(٣) سنة التـداول الحضـاري: بعـد أن قص الله قصـة "غزوة أحد" وما خضع له المسلمـون من سنة كان تجاهلها سببا في سقوطهم أو في هزيمتهم قال: ﴿ ..قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ..﴾[2].

(١) سورة الحجر: ٢١ .

(٢) سورة آل عمران: ١٦٥ .

وهذا المسمى بسنة التداول الحضاري المأخوذ بقوله تعالى: ﴿إن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾[1] وقد عبر بعض علماء الحضارة عن هذه السنة بالدورات الحضارية، ووضعوا لذلك سمات وقوانين وحاولوا تطبيقها على الحضارات الإنسانية في التاريخ، وقد صح شيء من ذلك على الحضارة الإسلامية وعز شيء آخر عن الخضوع لحساباتهم في سنة التداول الحضاري، لأن الأمة الإسلامية لم تمت، والحضارة الإسلامية تجددت وتتجدد دائما.

وعندما أنظر في تواريخ العالم في الشرق والغرب أجد أن الإمبراطوريات والدول كأنها تشبه البشر، لأن لها أعمارا تنتهي إليها، لكن الإسلام دين قبل أن يكون حضارة، وهذا معناه بقاء هذا الدين إلى البعث، وبقاء رسالته، وهذا الذي نفهمه من قول رسول الله ﷺ: " والله ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، وليدخلن هذا الدين كل مكان،

(1) سورة آل عمران: ١٤٠

حـتى ما يذر بـيتًـا من مـدر ولا وبر، إلا أدخله الله هذا الدين بعـز عـزيز أو بذل ذليل، عزا يعـز الله به الإسـلام وأهله، وذلا يذل الله به الكفـر وأهله»[1] [مـدر: طـين، وبر:صوف، المراد من كوخ أو خيمة].

فأسباب نهوض الأمم وأسباب سقوطها موجودة في القرآن الكريم، إنها سنن أشبه ما تكون بمعادلات رياضية، وبمجرد أن أحسن المسلمون التعامل معها أوجدوا حضارة، وعندما تنكروا لها كـان السقـوط، ولذا نرى كل ما جـاء على الحضـارة من الفساد الداخلي والاسـتبداد السياسي وغـير ذلك من الموجات العارمة الخارجية التي تحاول إسقـاط الحضارة الإسلامية،لكنها استعـصت عليها لأنها ارتبـطت بالوحي وبخلود القرآن تخلد هذه الأمة وإن كانت هذه الأمة تمرض ولا تموت، والعلل التي تصيبها يجئ أغلبها من اضطراب الحكم، فالعطب دائما يكون في القشرة التي تغلف العود، وهي الحكم.

ففـساد الحكم قشرة في النظام الإسـلامي، لأن الإسلام

(١) رواه أحمد بسند صحيح.

ليس حزبًا سياسيا، إنما هو مجموعة قيم وتعاليم ، وقد يكون الحكم حزاما يشد التعاليم، ولكن بقية التعاليم قائمة مع انقطاع الحزام، ويظهر هذا جليا مع سقوط بغداد، فإن التتار دخلوا في الإسلام على الرغم من غلبتهم، ورغم محاولات أوربا العصيبة والشديدة في أن تجرالتتار إليها وأن تجعل منهم حربا صليبية بل كانت فعلا كذلك. والأندلس مثلا آخر: أريد محو الإسلام فيها ولكن على الرغم من محاكم التفتيش بقى الإسلام، وإن عدم القضاء على الأمة الإسلامية دليل على عدم خضوعها للدورات الحضارية والمقاييس الحضارية الأخرى بشكل صارم، ولعل ذلك لأن الأمة الإسلامية هي الأمة الخاتمة التي ورثت النبوة، ولأن الإيمان الكامن هو خميرة النهوض وشرطه.

(٤) سنة المدافعة: وهي مأخوذة من قوله تعالى: ﴿ ..ولَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا.. ﴾[1]

(١) سورة الحج: ٤٠

هذه السنة الاجتماعية التي تحكم التجمعات البشرية يلمح الإنسان أثرها الفاعل في كل زمان ومكان، حيث يسلط الله الظالمين بعضهم على بعض وبذلك تكون فرصة لنجاة المستضعفين ونمو الخير وحماية أهله، فإذا أحسن المسلم التعامل مع سنن المدافعة يمكن أن يحقق كسبا وإنجازا للقضية الإسلامية على الرغم من الضعف والتبعثر والحكمة هنا في التحرك هي حسن اختيار الموقع الفاعل.

والاختيار الإلهي ليست له صورة محددة، والتدافع الحضاري جزء من الاختبار الإلهي وجزء من تمكين الخير بحيث تزداد صلابته في مواجهة الشر، والتدافع سنة وطبيعة للحياة الفردية والاجتماعية بمعنى أنه في داخل الجسم البشري تفرض المناعة نفسها عندما تدخل جراثيم غازية ويبدأ القتال حتى يبقى الجسم حيا، وكذا الحياة الإنسانية لا بد لها من هذا التدافع.

فهذا النوع من التدافع ربما ينشط أجهزة الإيمان بحيث

تتـحرك فـيه قـواه الداخلية إذا كـانت فاترة عندمـا يشعـر بالتحدي ويكون هذا سببا في إمداده بحياة جديدة.

وهنا سنن الله الكونية التي يجب أن يخضع لها المؤمنون والكافرون، إن الحياة فيها التصادم المستمر بين قوى ومبادئ مختلفة، وهكذا الحياة يحاول الكفر أن يفرض نفسه فتنشط قـوي الإيمان لكي تبقى، فـيبـقى الإيمان بعد أن نمت قـواه بضغط الكافرين عليـه، وهذا قول الله تعالى: ﴿ ..ولَـوْلا دَفْعُ اللَّه النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ.. ﴾[1].

ولـذا يقـول بعض علمـاء الحضـارة مثل: "تويـنبـي" وغـيـره: إن التحدي والاسـتفزاز سبب هام في الاسـتجابة والنهوض الحضاري وهو الذي يقضي على العناصر الشائخة ويستفـز الأمم لتنهض وتواجه ظروفها وعـدوها وأن فترات التحـدي هي فترات خـير للأمة لأنهـا تعيد إليـها شبـابها ونهوضها ومـا إلى ذلك، وهـو الذي أسميناه بسنة التدافع، ولها صور أخرى: كوجود قوى عالمية متناقضة تحمل العداوة

(١) سورة البقرة: ٢٥١

للمسلمين لكنهـا في الوقت نفسه تحمل من التناقض فـيما بينهـا ما يحـملها على الاقـتتـال والمواجهـة، فإذا أحـسن المسلمـون التـحـرك الحكـيم من خـلال الظروف المتـاحـة مستثمـرين التناقض القائم بين القوتين يمكن أن نقول بأنهم أفـادوا من سنـة المدافـعـة التي وردت في الـقـرآن الكريم وأدركوا أبعـادها مثلما فـعل" نعيم بن مسـعود" رضي الله عنه" مثـلا حينمـا أحسن التـحرك بين قريظـة وقريش في غزوة الخندق، على الرغم من حـصار المسلمين وضعـفهم المادي، فهل استطاع المسلمون في هذا العصر أن يستغلوا ما بين الجبـهات المتـصارعة في العـالم من فروق اجـتماعـية وسيـاسيـة لكي يظفروا بحق الحـياة أولا، ولكي يعـرضوا أيضـا ما عندهم من الإسـلام ويعرف مـا فيـه من خيـر، وأخيـرا لكي يستطيعـوا أن يستردوا مـا فقدوا من مسـاحة مكانية من الاستعـمار، وما أصابهم من نكبات اجتـماعية وسياسيـة كثيرة في الهزائم التي لحقت بهم، ويستـعيدوا ما فاتهم، لكن ذلك يحـتاج للجمع بين أمرين أسـاسيين" بين

الإخلاص العـميق للعقيـدة والمبدأ، والذكاء العـميق الذي يستـطيع به أن يفتق الحـيل حتى يصل إلى مـا يريد، وهنا نحن نري في زماننا أن الـيهود استطاعـوا أن يستفـيدوا من سنة المدافعة أكثر منا، فهم على الرغم من أقليتهم تساندهم أمريكا ويقف العالم كله تقريبا مـعهم، ولذلك صار اليهود يفعلون ما يشاءون وليس أمامنا في هذه الظروف إلا الأخذ بسنة المدافعة.

(٥) **سنة التسخير**: من السنن الموجودة في القرآن الكريم سنة التســخير مـثل تقسيم الـناس طبقات، فـهناك مهندس وهناك عـامل، ولا بد أن يسخـر العـامل ، لأن المهندس يمثل الدماغ، والعامل كأنه السـاعد في يده ، وهناك القيادة والجند، فالقائد يبقي في مكان يصدر منه الأوامر ولا يتلقى الضربات، وإنما يتلقاهـا الجند، والمعارك لا تدور إلا بهذا، واحد يصدر الأوامر والثاني ينفذ.

هذه سنن تسخيـرية وهي لا تدل على رضا وسخط من الله بقـدر مـا تدل على أن الله خلق الناس هكذا مـواهب

متفاوتة، وقد جاء هذا في قوله تعالى: ﴿ ..نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾[1] فهذا تسخير وهو سنة كونية .

وهناك لون آخر من التسخير، حينما سخر الله لنا البحر والأرض والشمس والقمر والنجوم، وسخر لنا ما في السماوات وما في الأرض، وجعل هذه الأشياء مسخرات لأمره، وجعل الإنسان خليفة في أرضه، ولا بد أن يستولى على كل شيء مسخرا لخدمته لتحقيق عمارة الأرض، فهل المسلمون الآن أحسنوا التعامل مع تسخير السنة هذه، أم أنهم صاروا مُسَخَّرين في الأرض كالآلات المسخرة؟

وإذا قال الله تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ.. ﴾[2] فهل انحصرت الآية في أن نأكل من البحر الأسماك والحيوانات، ونغتسل، وانتهى الأمر إلى هنا؟ هل فقه القرآن تلاشى عند أكلنا سمكا من البحر ويبقى البحر

(١) سورة الزخرف: ٣٢ (٢) سورة الجاثية: ١٢

لغيرنا؟ وكيف نستطيع الوصول إلى سمك البحر إذا كانت السيطرة عليه لغيرنا؟ هل هذه الآية يتغنى بها دون أن نعرف أن البحر المسخر لنا يجب أن نسخره لأنفسنا، وهذا هو الفكر الطبيعي للأمة الإسلامية، بدلا من أن يسخرنا في البر والبحر عباد لا دين لهم، ولا خلاق عندهم.!!

إن الأمة الإسلامية نشأت في أرض ثمانية أعشارها مياه، في هذه المساحات الهائلة من البحار ، توجد الآف من السفن، ليس فيها غواصة إسلامية ولا حاملة طائرات إسلامية، ولا سفينة - مدنية كانت أو عسكرية- تصنع في مرفأ عربي أو إسلامي، ما معنى هذا؟

أهؤلاء لديهم إدراك لمعنى الآية ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ..﴾؟!!(١).

أما المسلمون الأوائل وكانوا حديثي عهد بالقرآن والسنة، يوم أن اشتبكوا في معركة الصواري، وما كان للعرب صلة بمعارك البحار، ولكنهم علموا أنهم ما يكسبون المعركة

(١) سورة الجاثية: ١٢

ضد الرومان والبحر الوسيط بينهم إلا إذا صنعوا السفن، فصنعوا السفن واشتبكوا مع العدو، وما فكروا قط في أن يجعلوا من تلاوة آيات أو قراءة كتاب سنة، بركة لكي ينتصروا، وإنما كانت البركة في أن يحولوا آيات الجهاد إلى جهاد، وآيات الإعداد إلى إعداد. فأعدوا مكانا غريبا على بيئتهم، وما كان بعيدا على جاهليتهم وماضيهم الأول... كانوا ركاب إبل في سفن الصحراء، فما الذي جعلهم يصنعون السفن في البحر كي ينتعشوا؟!!

وإذا قال الله ﴿ ..**وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ**.. ﴾[1] الظاهر فيها أن الله يريد أن يعلم المسلمين من ينصره بالغيب، الدافع واضح من استخدام الحديد ، لابد من نصرة بالغيب، فاستخدم الحديد في صناعة السيوف أو الرماح، لكن الحديد اليوم أساس صناعة الدبابات، أساس صناعة السفن في البحار، أساس صناعة المسدسات

(١) سورة الحديد: ٢٥

والمدافع، أساس صناعات حربية هائلة، ما ينصر الله ورسوله إلا بهذه الصناعة، فأين هي من وعينا وأين نحن من إعداد أسبابها؟ لا شيء بالعكس ، لقد رأينا أن غيرنا حتى في ميدان الفلاحة. وهو ميدان بدائي استطاع أن يستثمر الأرض وأن يخرج منها القناطير المقنطرة، بينما لما وقعت الأرض في أيدينا ما أحسنا أن نأكل منها! وهذا بلاء كبير تقع فيه الأمة الإسلامية من سوء فهمها للقرآن.

لابد من جعل القرآن يتحول في حياتنا إلى طاقة متحركة، أما أن يوضع في المتاحف أو المكاتب للبركة، أو أن نفتح المصحف ونقرأ منه آية أو آيات وينتهي الأمر، فهذا لا يجوز!!

وإذا قال الله تعالى: ﴿وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾[1] فهل يصح أن نكتفي بأن الله لفتنا إلى أن هناك علامات في الأرض والسماء ولكن ما هي العلامات؟ وماذا صنعنا مع هذه العلامات؟ وما هي الوسائل والمبتكرات التي طورناها في هذا الموضوع؟

(١) سورة النحل: ١٦ .

إن غيـرنا الآن يغزو الفـضاء ويتخـذ من غزو الفـضاء منارات وعـلامـات لكى يسـخر الحـضـارة له، أمـا نحن فوقوف، لابد من إحسان التعامل مع القرآن.

"إن سيـر جينز" حـينما كـان يقرأ معلومـاته عن الفلك على بعض المسلمين، ويرتعش من حدة العاطفة التي ملكته وهو يحدث عن الله وعن الإيمان بعظمته لما رأى من عظمة المجرات التي درسها، كان أقرب إلى فهم الإسلام والقرآن من كثير منا عندما درس السماء أو قرأ القرآن دون فهم ولا وعي ولا معرفة.

المبحث الرابع

قضايا قرآنية: " الفقه بين دلالة القرآن واصطلاح الفقهاء"

كلمة " فـقه" كما وردت في القـرآن لاشك أنها تعني أكثر بكثير من المدلول الذي حدده الـفقهاء بأنه هو استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية.

حتى إن الله تعـالى قال عن المشركين بعـد هزيمتهم في غزوة بدر ﴿ ..بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ ﴾[1]

فعملية الفقه إنما استخدمت في القرآن بمعنى أوسع بكثير من المعنى الاصطلاحي الفقهي، إنه الفقه الحضاري بكل ما تشتمل عليـه كلمة حضارة من أبعاد، والمهم أن كلمـة فقه من الناحيـة اللغوية لها أبعاد غـير ما استـقر في الأذهان، فنجـد أن هناك فقـها للفلك، وفـقهـا للأخلاق، وفـقهـا

(1) سورة الأنفال: ٦٥

للحضارة، وفقها للسيرة، وفقها للدعوة، وفقها للغة. . . وهكذا.

ونقرأ في كتاب الله تعالى: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ** ﴾[1] فما المراد بالفقه هنا! إنه معرفة مستقر النفس الإنسانية قبل أن توجد وهي في الرحم، كما قال الله تعالى: ﴿ . . **وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ** . . ﴾[2] وما المستودع؟ إنه القبر وما يصل إليه البدن، ثم ما بين المستقر والمستودع من حياة، هذا كله يحتاج إلى فقه، هذا الفقه قد يكون فقها في علم الأجنة، وقد يكون فقها في أشياء كثيرة كما توصي الآية إليه هنا.

فالفقه الذي أشار إليه القرآن هنا واسع المرادات، ولكن غلب علينا أن نترك توجيهات القرآن غفلة منا مثل ما تركنا إلى الآن حساب الزمن بالنظام الفلكي مع دعوة القرآن للعلم بهذا، قال تعالى: ﴿ **هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً**

(١) سورة الأنعام: ٩٨ . (٢) سورة الحج: ٥

وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَاب ما خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَات لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[1].

فلماذا تحرص الأمة على أن تبقى أمة أمية ؟ إن الأمر يحتاج من غير شك إلى أن نفهم العلم ونفهم الفقه بالمعاني القرآنية، لأن القرآن وسع دائرة الفقه من خلال نظرنا في الآيات كما قال تعالى: ﴿ ..لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا .. ﴾[2] نتتبع الآية لماذا وصف اليهود بأنهم قوم لا يفقهون؟ والكفار - في بدر - لا يفقهون؟ لماذا لا نعرف القضايا التي جهلها هؤلاء وفقهنا القرآن فيها عن طريق تبصرنا بأن هؤلاء هزموا لعدم فقههم ؟

إن القرآن يلفت النظر لبيان أسباب سقوط الأمم وانهيار الحضارات ليأخذ المسلمون حذرهم فلا تتسرب إليهم إصابات الأمم السابقات وعللها، كما عقب القرآن على غزوة بني النضير بعد ذكر الأسباب التي كانت وراء

---

(1) سورة يونس: ٥ (٢) سورة الأعراف: ١٧٩ .

هلاكهم بقوله: ﴿..فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾[1] فلا ينبغي حصر هذه الآية وجعلها دليلا على صحة القياس التشريعي، بعيدا عن السياق الأصلى لها الذي هو بيان أسباب قيام وسقوط الحضارات، فإذا لم تجد الآية لها مساحة فكرية واهتماما، فيكون هذا من باب العجز عند الفقهاء المتأخرين أوالمفسرين، فانحصار الآيات في الحكم التشريعي وجعله الأول والآخر منهج خاطئ في النظر إلى القرآن والتعامل معه، إنه ينبغي أن يكون الفقه بمعناه العام وليس بمعناه التشريعي، وقد أخطأ كثيرون في التبحر في الحكم الفقهي التشريعي على حساب بقية الجوانب الأخرى الكثيرة والضرورية.

فالقرآن كتاب فقه حياة بكل أبعادها، وليس كتاب فقه بالمعنى المحدود.

لذلك بات كثير من المسلمين لا يرى في تطبيق الشريعة الإسلامية إلا تطبيق الأحكام الشرعية كتطبيق الحدود

(١) سورة الحشر: ٢

وتحريم المصارف الربوية، بينما يصعب عليهم إبصار بقية جوانب الحياة الأخرى من خلال المناخ الثقافي الإسلامي الذي صرنا نعاني منه.

لذالك وقع اختلال في العلم الديني حيث وجد من عكف على القرآن دون بيان السنن، أو عكف على السنة دون موازين القرآن، فانضم إلى السنة حشد هائل من الموضوعات والواهيات سببت بلبلة في الفكر الإسلامي.

وهناك شيء أخطر من هذا كله وهو أن علوم الحياة نبغ فيها نوابغ مثل "جابر بن حيان" في الكيمياء، " والحسن ابن الهيثم" في البصريات، "والخوارزمي" في الرياضيات، وغيرهم، لكن مع الأسف أن هؤلاء عاشوا على هامش المجتمع الإسلامي ولم يعيشوا في صميمه، واعتبرت هذه الأشياء التي يشتغلون بها ليست نوافل فقط، ولكن دون النوافل، مع أن المجتمع لا يقوم إلا بها، فهناك غش وقع في الثقافة الإسلامية، حيث وقع أولا في الفقه، فانحصر بعيدا عن فقه العمل والعمال وفقه الدولة، انفصل وذهب،

وتوسع في العبادات بطريقة تكاد تكون مضحكة، وتعددت الصور، لأن الفقهاء يريدون ملء الفراغ.

والتفسير للقرآن ابتعد أيضا عن روح القرآن ومقاصده، فالمحاور القرآنية بشكل عام لم تجد من يتبناها ويمشي مع آفاقها لكي يحققها في الحياة، بل العكس، الأسلوب الفقهي تغلب على أنواع البحث التي كان يجب أن تبتكر في الميادين الأخرى، فإن ما يحتاج إليه الطبيب غير ما يحتاج إليه الكيماوي، وما يحتاج إليه المهندس الزراعي غير ما يحتاج إليه الفلاح، فكل شيء له من طبيعته منهج يسير عليه، وامتداد هذه المناهج يكون في ثقافتنا صفرا.

إنها مشكلة العجز عن النظرة الشمولية للرؤية القرآنية التي أدت إلى هذا التقطيع والتمزيق والتبعيض المورث للمخزي الواقع في حياتنا اليوم،

فكيف يمكن أن نرسم الطريق لتحقيق الرؤية الشاملة والنظرة الموضوعية- لا الموضعية- ودون الاقتصار على مقصد واحد وإهمال بقية المقاصد.

إن تعاليم الإسلام نسيج متشابك ملتحم بعضه ببعض تختلط فيه العقيدة مع العبادة مع الأخلاق مع أنواع المعاملات المختلفة.

إن القرآن غذاء روحي مكتمل العناصر، فالنظرة هي النظرة الصحيحة للدراسة القرآنية، ولا يمكن الرضا بنظرة جزئية، لأن النظرة الجزئية عندما سادت الفكر الإسلامي نشأ عنها ما يشبه الجسم المشلول في بعض أطرافه وفي بعض أجهزته مع بقاء أجهزة أخرى حية، ولذلك فإنه لا يستطيع أن يؤدي وظيفته مادام الشلل أو الخطر جمد بعض الأجهزة أو بعض الأعضاء، ولذلك كان لابد من النظرة الشمولية للقرآن كله، وهكذا انطلق القرآن من بدء نزوله حيث نجد قول الله تعالى: ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ** ﴾[1] إنه الأمر بالقراءة

(١) سورة العلق: ١- ٧

أولا وكون القـراءة باسم الله، وليست ثقـافة مـجردة، أو علما للعلم، وإنمـا القراءة باسم الله لها هدفـها، الله الذي خلق، ربط القراءة بتكوين الإنسان من علق، قضية متباعدة الأطراف، ثم التركيز على هذا " اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم".

ثم دخول في مـسألة اقتـصادية واجتمـاعية مـعا، وهي طغيان الإنسان عندما يترف وينعم ويجيئه المال ويستكبر به، هذه المعـاني المتـباعـدة في ظاهرها هي القـرآن الذي يُكَوِّن مائدة متمـاثلة فيما ذهب إليه من حقـائق الحياة وعناصرها لمن يسمع ولمن ينفـذ، وصورة كاملة للإنسـان بنظرة شاملة متماسكة من داخل الإسلام بحضارة كـاملة بأبعادها جميعا فيها تشريع وتربية وتوعية أخلاقية وأحكام دولية إلي جانب المقاصـد الكثيـرة الأخرى التي تكـمل الصورة حيـث يقدم الإسلام بهذا الـشمول على أنه مادة وروح وعقـل وعاطفة ودنيـا وآخرة، أعطاه كل مـا يتصل بالحـياة، لأن الإسـلام هداية ورحمة، ومصلحة ومنفعـة وأسرة ومجتمع، وتفاعل

وخير وانطلاق للمسلمين، كما قال الله تعالى: ﴿ ..وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾[1] إنه لا ينبغي أن نجزئ القرآن، كمن يستدل بالآية ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾[2] منتزعا الآية من السياق كله لتدل على أن العمل الذي نؤديه مخلوق لله، ونسينا أن هذا الكلام لو صح ما كان عبدة الأصنام مسؤولين، لأنهم إذا كانوا مخلوقين لله وشركهم ووثنيتهم مخلوقة لله فما عليهم من ذنب لكن نحن أخذنا ظاهر الآية وقطعناها من سياقها من قبل ومن بعد، وجعلناها هكذا دليلا لرأى باطل... إنها آفة التجزئ.

بعض الناس بلغت به النظرة الجزئية حدا جعلته يأخذ من صدر سورة التوبة أن الإسلام دين هجوم، وإذا سألتهم عن الدليل يقولون قوله تعالى: ﴿ ..وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً.. ﴾[3]

ويقف ومن ثم لا يكمل الآية، لأن إكمالها ﴿ كما

(1) سورة لنحل: ٨٩
(2) سورة الصافات: ٩٦
(3) سورة التوبة: ٣٦

يقاتلونكم كافة﴾ فأنت هنا ترد الهجوم الشامل بدفاع شامل، وليس هناك ما يستدعي هذا، ولذلك فشمول النظرة القرآنية أمر لابد منه لكى تعطي الأحكام الصحيحة حتى الفقهية والتشريعية.

فإذا أدركنا أن الإنسان مخلوق سوى له سمع وله بصر وله فؤاد، ولابد أن يستغل هذه الوظائف جميعا في تصحيح إنسانيته والعيش بها، أدركنا أنه لا يمكن أن يتم هذا الذي قاله القرآن الكريم في مكان آخر مع إباحة الإكراه، فكيف تكره أحدا، إنك بهذا تلغي إنسانيته، وما فائدة الحكم الشرعي إذا فقد الذي يطبق الحكم الشرعي.

كما لو اشتبه على الإنسان قوله تعالى: ﴿**وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ**﴾[1] مع قول الله تعالى: ﴿**فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ**﴾[2] فيقول: كيف هذا؟ والإجابة: إنها مواقف وليست موقفا واحدا، فيجب أن تفهم كل واحدة في سياقها وبمعناها.

---

(١) سورة الصافات: ٢٤ (٢) سورة الرحمن: ٣٩

إن القرآن الكريم فيما أرى جاء بالمبادئ وترك الاجتهاد في التفصيلات في تنزيل النص على الواقع ووضع البرامج التى ترشد إلى اجتهادات العقل البشري في كل عصر حسب معطياته ومشكلاته، كأن يقرر الإسلام مبدأ الشورى بتحقيق العدالة الاجتماعية ويرسم لها الخطوط العامة ويترك التفصيلات والصور والهيئات تختلف باختلاف الزمان والمكان.

فالاجتهاد تنزيل نص على حادثة معينة، ويكون فهما للقرآن أو للحديث. وأئمتنا عندما اختلفوا ما زعم أحدهم أنه أصاب الحق الذي يُرده الله تعالى، بل قال : "رأيى صواب يحتمل الخطأ ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب"، وبقى الود وبقى التواضع بينهم.

المبحث الخامس

نوازل العصر في ضوء القرآن الكريم:

هناك علاقة بين البعد الإيماني والسنن التي تحكم عالم الشهادة في كتاب الله تعالى، ودور الإيمان في التنبه لهذه السنن وإعمالها وما يهب الإيمان والتقوى الفرد المسلم من استعدادات تدفعه إلى الإنجاز ولا تقعد به عاطلا عن التعامل مع هذه السنن ومثال ذلك ربط القرآن الكريم كثيرا بين النتائج المتحصلة من إعمال هذه السنن بالتقوى، فمثلا ربط بين التقوى وما تؤدي إليه من بصيرة في النظر للأمور والحكم عليها بالحق أو الباطل، بالصواب أو الخطأ في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا..﴾[1] وهناك ارتباط بين الإيمان والتقوى وبين اكتشاف سنن التسخير وزيادة الرزق، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ

(١) سورة الأنفال: ٢٩

السَّمَاءِ وَالأَرْضِ..﴾[1] وهناك ربط بين الإيمان والصبر الإيجابي وبين تجاوز المحن، كما قال تعالى: ﴿..وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾[2] كما قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾[3] وربط أيضا بين الاستغفار والتوبة، وبين نزول المطر وتحقيق الخير فقال تعالى: ﴿**فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا. يرسل السماء عليكم مدرارا. ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا...**﴾[4].

وهناك ربط بين الانتصار في ميدان المبادئ، والانتصار على الشهوات وبين الانتصار على العدو، كما قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ**﴾[5] وهناك أيضا ربط بين الظلم الاجتماعي ومنع

(1) سورة الأعراف: ٩٦
(2) سورة آل عمران: ١٢٠
(3) سورة البقرة: ١٥٥
(4) سورة نوح: ١٠-١٢
(5) سورة محمد: ٧

الفقراء حقوقهم وبين فقدان الثروة ودمارها كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) وَلا يَسْتَثْنُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴾(١).

وأيضا الربط بين الفسق والترف وبين الهـلاك، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾(٢) وما يحـدث على أرض الواقع الآن من هزيمة الأمـة وهـوانهـا إنما هو بسبب ظلمها كما قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾(٣) وما يقع من دمار وخراب في عالمنا الإسلامي، سببه كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴾(٤) .

---

(١) سورة القلم: ١٧-٢٠
(٢) سورة الإسراء: ١٦
(٣) سورة الأنعام: ١٢٩
(٤) سورة إبراهيم: ٢٨

المبحث السادس

محاربة الاستبداد السياسي في القرآن الكريم:

هذا . . . وإذا نظرنا في قصص القرآن الكريم نجد فيها محاربة الاستبداد السياسي، بأن لا يكون الحاكم جبارا، وأن لا تكون السلطة قاهرة، لأن السبب الرئيس لمعظم المشكلات التي نعاني منها- نحن المسلمين - فساد الحكم أو الاستبداد السياسي الذي أتى بدوره على قدرات الأمة على الامتداد في مختلف المجالات، ولما كان هذا الاستبداد مرتبطا بأحوال الأمة وبُعدها عن منهجها وقيمها " فكما تكونون يولي عليكم" فإن الله تعالى طلب من الأمة التغيير ، والذي يبدأ بتغيير الأفكار والنفوس - فهذا هو الأساس- لأن الخلل السياسي إنما تربع وامتد في إطار الخلل الفكري أو التربوي أو الدعوي، قال تعالى: ﴿ ..إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ.. ﴾[1].

(١) سورة الرعد: ١١

إن أمة يستأثر بها حاكم أو مـستبد أو ظالم، لهي أمة لا يوثق بهـا أصلا أن تكون قـابلة للحيـاة والامتداد وصـناعة حضارة، فالأمة - لاشك- مسـؤولة أمام الله تعالى. فهذا جـانب يلتقط له بعـض المؤشرات من القـرآن الكريم، لأن الظلم والفرعنة والاستبداد والفسوق الذي هو ثمرة من ثمار الاستبداد السياسي كان سبب سقوط كثير من الأمم، فكيف انتصر المستـضعفون وما هى الأسباب الماديـة والنفسية التي كانت وراء انتصاراتهم على قوي الظلم والاستبداد.

إن القرآن حدثنا عن عاد وثمود، ولماذا أهلكهم الله؟

فإذا كان التشـابه موجودا في مجتمـعنا، فلابد من أخذ العبرة قبل فوات الأوان، كما حدثنا القرآن عن الفساد الذي حدث في بني إسرائيل، وكيف كان سببا فى زوال دولتهم، وقد حذرنا النبي ﷺ من اتباع سننهم وسلوكهم وتقليدهم.

واعتـقد أن مـا حدث اليوم - ولا يـزال يحدث - في الأمة الإسلاميـة هو ما حصل في الأمم الأخرى، لأن سنة الله ثابتة.

والعـقاب الإلهي أن الله نزع قـيـادة البشـرية من أيدي المتـدينين مـن المسلمين ووضـعـهـا في أيدي العـلمـانيين والكافرين.

وهذا يجعل أهل الدين بحـاجة لأن تكون فيـهم رجات داخلية، تجعـلهم يتحركون من الداخل لإصـلاح أنفسهم، ولعل الأمة الإسـلامية لا تزال باقـية ببقاء الأمـر بالمعروف والنهي عن المنكر في كـيانها، وإن كـان قليلا، لكن الأمم الأخرى مـاتت تماما كالمجتـمع الأوربي والأمريكي ، الذي لا يرى حرمة الزنا أو الربا أو الخمر أو غير ذلك.

كما أن القرآن الكريم ذكر من نماذج الاسـتبداد السياسى "فرعـون" كنموذج مـتصاعـد للحاكم الظالم فـي التاريخ البشـري في صراعـه مع الحق الذي تمثله النبـوة في صورة "موسى" عليه السلام، وكان فـرعون من بين سائر الظلمة هو الأنموذج المتصـاعد الذي بلغ من طغيـانه ما لا يمكن أن يبلغه أي حاكم في أي عصر أو مصر.

ويبقى "فرعـون" نموذجا واضحا في الظلم والاستبداد السياسي حيث ممارساته في إطار الشعب من تقتيل الأبناء واستحياء النساء حتى لا ينازع السلطة، بل لقد وصل الأمر به إلى مرحلة إدعاء الألوهية وتوظيف الناس لأهوائه، والاستخفاف بهم وما إلى ذلك.

فلابد من التوقف عند الكيفية التي تم بها تقويض ملك فرعون وحكمه والتي كانت من داخل قصره، حيث تربى "موسى" في القصر وربته امرأة فرعـون، فكان لهم عدوا وحزنا. وحديث القرآن عن "مؤمن آل فرعون" الذي وفق في مواجهة السلطة والاستبداد السياسي من داخل السلطة ليعلن المثوبة إلى الله على ملأ من الناس وأن هذه الدنيا متاع... إلى آخر ما قال، أمر يحتاج إلى فقه وتدبر.

وكذلك قصة السحرة الذين منَّاهم فرعون بالأجر والقرب، فأقسموا بعزته على الغلبة له، ولم يمض كثير وقت حتى خروا سجدا لله رب العالمين، وكيف ظن فرعون أن الإيمان يحتاج إلى استئذان، فقال لهم:

﴿ ..آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ.. ﴾[1] إن الإيمان إذا خالط بشاشته القلوب يجعلها تستعصى على الاستبداد، كما يجعلها من أصحاب الفداء والتضحية ، والإيمان الصادق، مع حب الاستشهاد، ويعجب الإنسان كيف انقلب سحرة فرعون من الضد إلى الضد، وقالوا لفرعون عندما هددوا بأنهم سيستأصلون : **﴿ ..فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾**[2].

وينبغي أن نستفيد من قصة موسى مع فرعون . إن الفساد يجيء من أعلى ويهبط إلى أدنى، والإصلاح يبدأ من أدنى ويصعد إلى الأعلى، فعلى الذين استضعفوا أو استعبدوا أن يتحرروا أو يبحثوا عن خلاص، فهذا واجب عليهم، لأن الإصلاح يأتي من هذه الناحية، وذلك الذي أشار إليه القرآن في قوله تعالى: **﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ**

---

(١) سورة طه: ٧١ (٢) سورة طه: ٧٢-٧٣

﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾[1].

ثم نرى خاتمة هذا الاستبداد في قوله تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[2] فقال الله تعالى له: ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾[3] وأراد الله أن يجعله آية وعبرة لمن بعده بإلقاء جثته على الشاطئ ميتا مكشوف السوءة ، وهو الذي كان بالأمس يدعي الألوهية، ويسجد له الناس فقال الله: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾[4].

(١) سورة القصص: ٥-٦
(٢) سورة يونس: ٩٠
(٣) سورة يونس: ٩١
(٤) سورة يونس: ٩٢

كما عـرض القرآن نموذجا آخر لـهذا الاستبداد والطـغيان متمثلا في النمرود، كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ.. ﴾[1] لماذا جادله في الله ؟ ﴿ أن آتاه الله الملك ﴾.. فكأن الملك هو السبب في إغراء الرجل بالكبرياء وادعاء الألوهية، وأنه نظير لله فيما يفعل في الأرض.

كمـا قص الله عـز وجل علينا نموذجا آخـر يمثل الظلم الاجتمـاعي من الناحية الاقتـصادية ، إنه " قارون" ذلك الذي أوتي من الأمـوال والكنوز ما عـبر عنه القـرآن ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ.. ﴾[2] .

فكيف كان مصيره؟ ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ.. ﴾[3].

أما الخلاصة التي أرادت سـورة القصص أن تقررها بعد ذكـــر نموذجين : أي "فرعون" كـمثال للفســاد السياسي، و"قارون" كـمثال للفـساد الاقتـصادي، قـال الله تعالى:

---

(١) سورة البقرة: ٢٥٨

(٢) سورة القصص: ٧٦

(٣) سورة القصص: ٨١

﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[1] .

هذه هي الخلاصة التي ساقتها بعد مصرع قارون ومصرع فرعون، لأن الله سبحانه وتعالى لا يقبل أن يدخل جنته مستكبر أو طاغية، ولذا كان من أوائل ما نزل قول الله تعالى في سورة العلق ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴾[2] وفي سورة المدثر ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُودًا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودًا ۝١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ۝١٤ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝١٥ كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴾[3] فطغيان الاقتصاد قد يكون خادما أو وزيرا للطغيان السياسي، وهو يمهد له ويوطن الصدور بكل قوة.

هذا النموذج الذي ورد في القرآن الكريم ليكون عبرة للشعوب الذليلة ، والمؤمنين ـ في الصمود ومواجهة الظلم، ويكون عبرة أيضا للمستبدين والطغاة في نهايتهم

---

(١) سورة القصص: ٨٢

(٢) سورة العلق: ٦-٧

(٣) سورة المدثر: ١١-١٦

ومصارعـهم، وما إلى ذلك ، له أبعاد نفيسة مـتعددة يمكن أن تؤصل لتكون منهجا في تربية الشخصية الاستقلالية التي يحميها الإيمان من الظلم والسقوط واليأس.

اعتقد أن القرآن الكريم إنما قص هذه القصة عن فرعون وبني إسرائيل ومـصير المستـبدين سواء أكانوا سـياسيين أم اقتصاديين، إنما فعل هذا لكي نأخذ عبرة بأنه ما يجوز ترك حـاكم يتـفرعـن، يجب تقليم أظافـر الذين ينزعـون إلى الاستعلاء على الخلق وادعاء الألوهية.

فإذا كانت السلطة أو الثروة من أسباب الشذوذ، فيجب أن تقيـد السلطات بحيث لا تـغري أحدا بهـذا الاستـبداد الأعمى، وأن تقـيد الأملاك وأن تراقب الأمـوال فلا تكون سببا في أن يتآلف من أصحاب الأموال طبقات من المترفين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون.

يقـول الشـيخ محـمـد رشيـد رضـا في "المنار" :" إن "موسى" ذكر في القـرآن مائة وعشرين مرة، فـما ذكر اسم نبي ولا ملك كـما ذكر اسم مـوسى، وإن قصـة موسى لم تذكر للتسلية وإنما حتى لا يتحول الخلفاء إلى فراعنة، وحتى

تعرف الشعوب أيضا أن عبادة غير الله جريمة ، وأن الرضا بالذل ستكون عقباه الهوان في الدنيا والهوان في الآخرة.

ولعل القرآن تحدث كثيرا عن أن الأتباع يلحقون متبوعيهم في جهنم لكي يفطم النفوس عن هذه التبعية الذليلة.

وقد تقرر هذا المعنى في القرآن نحو خمس مرات حتى لا يكن هناك في الأمة أتباع مسحورون بقوة السلطة وحتى لا يكون هناك من فقد ضميره وعقله وإرادته وهو مخدوع بجبروت الجبارين.

وبين القرآن أن هذا الجبروت هالك في الدنيا ولن يغني عن أصحابه أبدا، وأن هؤلاء الجبابرة سيتبرأون من أتباعهم يوم القيامة، كما يتبرأ أتباعهم منهم. ولو أننا تأملنا في القصص القرآني واستفدنا منه أحكاما في الواقع العملي ما كانت الأمة الإسلامية تقبل الدنية أبدا.

إننا لم ننتفع بالوحي، ولم نعتبر بالتاريخ، إنه لو تدبر المسلمون القرآن الكريم تماما لما حل بهم ما حل من الاستسلام والسقوط، والاستبداد السياسي، والظلم الاجتماعي، لو كانوا في مستوى قرآنهم وما قص عليهم

من قصص ليأخذوا العبرة، فتحول دون وقوعهم فيما وقع فيه الأقوام السابقون.

لكن المشكلة أن القرآن بقى معزولا عن حياة المسلمين، فلم ينتبهوا إلى مثل هذه القضايا، إن القرآن الكريم قبل أن يذكر لنا قصة فرعون - في سورة غافر- يقول لنا ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ (٢١) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[1].

إنه لا ينبغي أن نخشع للجبابرة، ولا أن نخضع للفراعنة، فضلا عن أعدائنا. لأن الله أقوى وأشد، وقديما قالت عاد: "من أشد منا قوة" وحديثا قالتها أمريكا لما تفردت بحكم العالم وأرادت أن تغير خارطته وتقيم نظاما عالميا جديدا في ظل العولمة الحديثة، وبعد هزيمتها لأكثر من دوله راحت تقول بلسان الحال والمقال: من أشد منا قوة؟.

---

(١) سورة غافر: ٢١-٢٢

ويبقى أن نقول مع القرآن : ﴿ ..أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾(١).

هذا والتاريخ يعيد نفسه، ففي القديم كان هناك فرس ورومان يحكمان العالم ولا مكان للعرب بينهما حتى جاء نبي الإسلام وأقام أمة وأسس دولة، ورفع راية الإسلام ترفرف على العالم وسقطت رايات الكفر.

ثم جاء العصر الحديث وأصبح العالم تحكمه رايتان: راية الإلحاد الشيوعي متمثلة في "الاتحاد السوفيتي" وراية الغرب الصليبي الرأسمالي متمثلة في "الولايات المتحدة الأمريكية" وسقط الاتحاد السوفيتي، ويبقى أن تسقط أمريكا عما قريب بإذن الله تعالى، لترتفع راية الإسلام مرة أخرى وأخيرة، وليتحقق وعد الله تعالى ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾(٢)

---

(١) سورة فصلت: ١٥ (٢) سورة التوبة: ٣٢-٣٣

﴿ ..وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ④ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾[1] وعندئذ ﴿ ..وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾[2].

ومع تلك الخاتمة بنصرة الإسلام وهلكة الظالمين سنعلن جميعا - بإذن الله - الحمد ونلهج بالثناء على الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ㊹ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[3] .

وفي الختام : ينبغي تأسيس أو تدوين منهج للعودة للقرآن الكريم يقتضي نزع فكرة القدسية عن فهم البشر، وأن هذه الفهوم ليست دينا وليست شيئا ملزما في الفهم، وإنما هى فهم من خلال ظروف معينة لتنزيل النص القرآني في عصر معين على حالة معينة، فقد يتغير العصر وقد

(١) سورة الروم: ٤،٥

(٢) سورة الشعراء: ٢٢٧

(٣) سورة الأنعام: ٤٤، ٤٥

يتغير الفهم، وقد يدرك فهم آخر تهيأ له الكشوف العلمية، فإذا استطعنا الوصول إلى مرحلة القناعة بأن هذا التراث ليس مقدسا، وإنما هو فهم بشري قابل للخطأ والصواب، وإنه يستعان به إذ هو وسيلة للوصول إلى النبع الأصلي، وإنه لا يغني عن النبع الأصلي بحال من الأحوال أو عصر من العصور.

ونبقى مشدودين للقرآن باستمرار، مشدودين إلى محاورة كلها وسننه وقوانينه المطردة، أي الوصول إلى مرحلة الفكر القرآني أو الفلسفة القرآنية، وبذلك يمكن أن نكون قد وضعنا الخطوة المطلوبة اليوم لمنهج العودة إلى القرآن، إننا نحتاج إلى فقه سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه في تطبيقه النص القرآني، ونحتاج إلى أن نتعامل مع القرآن ليكون مصدرا للعلوم الاجتماعية حيث العلم الذي يبحث في الأسرة والأمة وما يطرأ عليها من تغييرات، والقوانين التي تنتظمها، والاستفادة من أسباب انهيار الأمم والحضارات وإدراك السنن الكونية، ومعرفة حقائق الأشياء

الثابتة، ودراسة أثر الوراثة والاكتساب في حياة الأمم، مع ما ذكرناه من نماذج للاستبداد السياسي، والظلم الاجتماعي، وثواب الصمود والمواجهة من خلال الرؤية القرآنية، وعدم البعد عن القرآن حتى لا يتحقق فينا قول الله تعالى: ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾[1] بل يكون ذكرا ورفعة وعلوا، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾[2] وعلينا أن نترجم معاني القرآن مع إدراك مقاصد النص القرآني، والجمع بين التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي، وعدم إخفاء التفسير العلمي، والتركيز على فهم القرون الأولى، والاستنارة بالعلم الحديث، ليتحقق الشهود التاريخي والشهود الحضاري ولتكون الانطلاقة لهذه الأمة مرة أخرى على هدى القرآن ونوره الذي لا يخفت أبدا.

(١) سورة الفرقان: ٣٠ (٢) سورة الزخرف: ٤٤

ثانيا: أسس التعامل مع السنة المطهرة
بيان منزلة السنة وواجبنا نحوها وكيف نتعامل معها
المبحث الأول

منزلة السنة في الإسلام:

إن السنة هي التفسير العملى للقرآن، والتطبيق الواقعي - والمثالي أيضا - للإسلام، فقد كان النبي ﷺ هو القرآن مفسرا، والإسلام مجسما. وقد أدركت هذا المعنى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، ببصيرتها، ومعايشتها لرسول الله ﷺ فعبرت عن ذلك بعبارة مشرقة بليغة، حين سئلت عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: كان خلقه القرآن: فمن أراد أن يعرف المنهج العملى للإسلام بخصائصه وأركانه، فليعرفه مفصلا مجسدا في السنة النبوية القولية والعملية والتقريرية.

فالسنة منهج شمولي: فهى منهج يتميز بـ"الشمول" لحياة الإنسان كلها، طولا وعرضا وعمقا.

ونعني بـالطول: الامتـداد الزمني والرأسى الذي يشمل حياة الإنسان من الميـلاد إلى الوفاة، بل من المرحلة الجنينية إلى ما بعد الوفاة.

ونعني بالعرض :الامتداد الأفقي، الذي يشكل مجالات الحياة كلها، بحيث تسيـر معه الهداية النبوية في البيت وفي السوق، وفي المسجد ، وفي الطريق، وفي الـعمل، وفي العلاقة مع الله، والعلاقة مع النفس، والعلاقة مع الأسرة، والعـلاقة مع الآخـرين، مسلمـين وغيـر المسلمين، بل مع الإنسان والحيوان والجماد.

ونعني بالعـمق: الامتـداد في أغوار حياة الإنســان فهي تشـمل الجسم والعـقل والروح، وتضم الظاهر والبـاطن، وتعم القول والعمل والنية.

وهى منهج متوازن: فهى منهج يتميز كذلك بالتوازن، يوازن بين الروح والجسم ، بين العـقل والقلب، بين الدنيا والآخرة، بين المثال والواقع، بين النظر والعمل، بين الغيب والشهادة، بين الحـرية والمسؤولية، بين الفردية والجمـاعية، بين الاتباع والابتداع. . .فهو منهج وسط لأمة وسط.

ولهذا كان ﷺ إذا لمح من بعض أصحابه جنوحا إلى الإفراط أو التفريط، ردهم بقوة إلى الوسط، وحذرهم من بغية الغلو والتقصير، كحديث الثلاثة نفر الذين سألوا عن عبادته وحديث عبد الله بن عمرو فى الصيام والقيام والتلاوة وهى منهج ميسر: ومن خصائص هذا المنهج، أنه يتميز **أيضًا** باليسر والسهولة والسماحة، ولذلك كان من أوصاف الرسول محمد ﷺ في كتب الأولين من التوراة والإنجيل أنه ﴿ **..يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ..** ﴾[1] فلا يوجد في سنة النبي ما يحرج الناس في دينهم، أو يرهقهم في دنياهم، بل هو يقول عن نفسه "**إنما أنا رحمة مهداة**" [2] يتأول قول الله تعالى: ﴿ **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** ﴾[3] وقال عليه الصلاة والسلام "**إن الله لم يبعثني معنتا ولا متعنتا ولكن بعثني معلما ميسرا**"[4] وقال ﷺ معلما لأمته: "**يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا**"[5].

(١) سورة الأعراف: ١٥٧ .

(٢) أخرجه الحاكم (١ / ٣٥) والطبرانى فى الصغير (١ / ٩٥) بسند صحيح.

(٣) سورة الأنبياء.

(٤) رواه أحمد (٣ / ٣٢٨) ومسلم (٤ / ١٨٧).

(٥) أخرجه البخارى (١ / ٢٧) ومسلم (٥ / ١٤١).

المبحث الثاني

واجب المسلمين نحو السنة:

السنة النبوية هي - كما علمت- المنهاج التفصيلي لحياة الفرد المسلم، والمجتمع المسلم، وهي تمثل - كما أشرنا- القرآن مفسرا، والإسلام مجسدا، فقد كان الرسول ﷺ هو المبين للقرآن، والمجسد للإسلام، بقوله وعمله، وسيرته، كلها في الخلوة والجلوة، والحضر والسفر، واليقظة والنوم، والحياة الخاصة والعامة، وفي العلاقة مع الله، ومع الناس، ومع الأقارب والأباعد، والأولياء والأعداء، في السلم والحرب، وفي العافية والبلاء. ومن واجب المسلمين أن يعرفوا هذا المنهاج النبوي المفصل، بما فيه من خصائص الشمول والتكامل والتوازن والتيسير، وما يتجلى فيه من معاني الربانية الراسخة، والإنسانية الفارعة، والأخلاقية الأصيلة.

وهذا يوجب عليهم أن يعرفوا كيف يحسنون فهم هذه السنة الشريفة، وكيف يتعاملون معها فقها وسلوكا كما تعامل معها خير أجيال هذه الأمة: الصحابة ومن اتبعهم بإحسان.

إن أزمة المسلمين الأولى في هذا العصر هي أزمة فكر، وهي في رأيي تسبق أزمة الضمير، وأوضح ما تتمثل فيه أزمة الفكر هي أزمة فهم السنة والتعامل معها، وخصوصًا من بعض تيارات الصحوة الإسلامية، فكثيرًا ما أتى هؤلاء من جهة سوء فهمهم للسنة المطهرة.

وهنا ينبغي التحذير من آفات ثلاث: تحريف أهل الغلو ذاك التحريف الذي ياتي عن طريق الغلو والتنطع والتنكب عن الوسطية التي تميز بها هذا الدين، وعن "السماحة" التي وصفت بها هذه الملة الحنيفية، وعن "اليسر" الذي اتسمت به التكاليف في هذه الشريعة. انتحال أهل الباطل: وهناك "الانتحال" الذي يحاول به أهل الباطل أن يدخلوا على هذا المنهج النبوي ما ليس منه، وأن يلصقوا به من

المحدثات والمبتدعات ما تأباه طبيعته، وترفض عقيدته وشريعته، وتنفر منه أصوله وفروعه.

وتأويل أهل الجهل: وهناك سوء التأويل الذي به تشوه حقيقة الإسلام، ويحرف فيه الحكم عن مواضعه وتنتقص فيه أطراف الإسلام، قال ﷺ: **«يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين»[1] إنها معاول ثلاث.**

* * *

---

(١) رواه الطبراني في مسند الشاميين (٥٩٩) والبيهقي في السنن الكبرى (١٠ / ٢٠٩) وابن أبي حاتم في تقدمة الجرح والتعديل (٢ / ١٧) وابن عدي في الكامل (١ / ١٥٣) وأشار الإمام أحمد إلى صحته بمجموع طرقه، وكذا الألباني في تخريج المشكاة (٢٤٨).

المبحث الثالث

مبادئ أساسية للتعامل مع السنة:

ومن هنا ينبغي لمن يتعامل مع السنة النبوية، لكى ينفي عنها انتحال المبطلين وتحريف الغالين وتأويل الجاهلين أن يتشبث بعدة أمور، تعتبر مبادئ أساسية في هذا المجال:-

١- أن يستوثق من ثبوت السنة وصحتها حسب الموازين العلمية الدقيقة التي وضعها الأئمة الأثبات والتي تشمل السند والمتن جميعا سواء كانت السنة قولا أم فعلا أم تقريرا.

٢- أن يحسن فهم النص النبوي وفق دلالات اللغة، وفي ضوء سياق الحديث وسبب وروده، وفي ظلال النصوص القرآنية والنبوية الأخرى وفي إطار المبادئ العامة، والمقاصد الكلية للإسلام ، مع ضرورة التمييز بين ما جاء منها على سبيل تبليغ الرسالة وما لم يجئ كذلك.

أو بعبارة أخرى، ما كان من السنة تشريعا وما ليس بتشريع، والتفرقة بين الخاص بالنبي ﷺ والعام.

٣- أن يتأكد من سلامة النص من معارض أقوى منه، من القرآن، أو أحاديث أخرى أوفر عددًا أو أصح ثبوتا، أو أوفق بالأصول وأليق بحكمة التشريع أو المقاصد العامة للشريعة، التي اكتسبت صفة القطعية، لأنها لم تؤخذ من نص واحد أو نصين، بل أخذت من مجموعة من النصوص والأحكام أفادت بانضمام بعضها إلى بعض يقينا وجزما بثبوتها.

* * *

المبحث الرابع

السنة التي يرجع إليها في التشريع والتوجيه:

إن السنة هي المصدر الثاني للإسلام في تشريعه وتوجيهه، يرجع إليها الفقيه لاستنباط الأحكام كما يرجع إليها الداعية والمربى. ليستخرجا منها المعاني الملهمة، والقيم الموجهة، والحكم البالغة، والأساليب المرغبة في الخير، والمرهبة عن الشر.

ولا بد للسنة لكي تقوم بهذه المهمة أن يترجح لدينا ثبوتها عن النبي ﷺ وهذا يترجم في علم الحديث بأن يكون الحديث الذي يستشهد به صحيحًا أو حسنا، والصحيح يشبه مرتبة الممتاز أو الجيد جدا في التقدير الجامعي، والحسن يشبه مرتبة الجيد أو المقبول، و لذا كان أعلى الحسن قريبا من الصحيح، كما أن أدناه قريب من الضعيف.

وعلماء الأمة متفقون على هذا الشرط في الأحاديث التي يحتج بها في الأحكام الشرعية العملية، التي هي عماد علم الفقه وأساس الحلال والحرام. ولكنهم مختلفون في الأحاديث التي تتعلق بفضائل الأعمال والأذكار والرقائق والترغيب والترهيب ونحوها. مما لايدخل في باب التشريع الصريح، فمن علماء السلف من تساهل في روايته، ولم ير في إخراجه بأسا، وهذا التساهل ليس على إطلاقه فله مجاله وله شروطه، ولكن الكثيرين أساءوا استخدامه، فشردوا به عن سواء السبيل، ولوثوا به نبع الإسلام المصفى. وكتب المواعظ والرقائق والتصوف حافلة بهذا النوع من الأحاديث وكثير من كتب التفسير أيضا.

يجب أن يعُلم أن رد الأحاديث الصحيحة كقبول الأحاديث الموضوعة: إن قبول الأحاديث المكذوبة يدخل في الدين ما ليس منه، أما رد الأحاديث الصحيحة فيخرج من الدين ما هو منه، ولاريب أن كليهما مرفوض مذموم: قبول الباطل ورد الحق.

بيد أن الذي ألفت النظر إليـه هنا هو رد السنة وصحاح الأحاديث ، بناء على فهم خاطئ لاح في ذهن امريء غير متخصص ولا متثبت مما يدلنا على ضرورة التأني والتحري والتدقـيق في فهم السنة. والرجـوع إلى مصـادرها وأهلها وهو ما ننبه عليه.

كمن رد أحاديث صحيحة لسوء فهمها ، ومثاله حديث "اللهم أحينـى مسكينا. . ."[1] وحديث تجـديد الدين[2] وحديث بـني الإسلام على خـمس و غير ذلك، فـنقول : من المجارقة التـسرع برد الصحيح وإن أشكل فـهذا أمر لا يجتريء عليه إلا الراسخون في العلم.

* * *

---

(١) حديث حسن بمجموع طرقه، رواه ابن ماجة (٤١٢٦) وأخرجه الترمذى (٢٣٥٢) وحسنه الألبانى فى الارواء (٨٦١) والسلسلة الصحيحة (٣٠٨).

(٢) حديث «إن الله يبعث لهذه الأمة على راس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها».
صحيح أخرجه أبو داود (٤٢٩١) والحاكم (٤ / ٥٢٢) والخطيب فى التاريخ (٢ / ٦١) وصححه الألبانى فى الصحيحة (٥٩٢١) وصحيح الجامع (٦٨٧٤).

المبحث الخامس

السنة في مجال الفقه والتشريع:

السنة هى المصدر الثانى للفقه والتشريع بعد كتاب الله تعالى، حتى قال الإمام الأوزاعى: الكتاب أحوج إلى السنة من السنة إلى الكتاب، وذلك لأن السنة هى المبينة للكتاب، فهى التى تفصل ما أجمله، وتقيد ما أطلقه، وتخصص ما عممه.

والذى لا نزاع فيه هو مصدرية السنة للتشريع فى العبادات والمعاملات للفرد وللأسرة وللمجتمع وللدولة.

يقول الإمام الشوكانى: الحاصل أن ثبوت حجية السنة، واستقلالها بتشريع الأحكام، ضرورة دينية، ولا يخالف فى ذلك إلا من لاحظ له فى دين الإسلام.

ومن قرأ كتب الفقه الإسلامى فى أى مذهب كان، وجدها طافحة بالاستدلال بالسنة قولا وفعلاً وتقريراً.

وقد ثبت أن جميع الفقهاء يحتكمون إلى السنة، المقل منهم والمكثر، معروفا باسم مدرسة الحديث، أو مدرسة الرأى.

مع وجوب وضرورة الوصل بين الحديث والفقه، كما هو واجب على الفقهاء أن يتعمقوا فى علم الحديث، كما على المحدثين أن يتقنوا علم الفقه.

* * *

المبحث السادس

السنة في مجال الدعوة والتوجيه:

السنة النبوية - بعد القرآن الكريم- هي المورد الذي لا ينضب، والكنز الذي لا ينفد، ليستمد منه الداعية في خطبته إذا خطب، وفي موعظته إذا وعظ، وفي درسه إذا درس، ففيها من التوجيهات المشرقة، والحجج الدامغة، والحكم البالغة، والكلم الجامعة، والمواعظ المؤثرة، والأمثال المعبرة، والقصص الهادفة، وألوان الأمر والنهي، والوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، ما يلين القلوب الجامدة، ويحرك العزائم الهامدة، وينبه العقول الغافلة، **فهي تسير في خط القرآن في مخاطبة كيان الإنسان كله: عقله وقلبه، وهي تعمل على تكوين الشخصية المسلمة** المتكاملة ذات العقل الذكي، والقلب النقي، والجسم القوي.

وفي كتب السنة ثروة طائلة للداعيـة الموفق، يتخذ منهـا زاده، ويملأ منها جعبته، ويتكون منها -مع معرفته القرآنية- محصـوله الأساسى للدعوة والتوجيـه. وأول ما ينبغى على الداعيـة أن يعتمد عـليه وينهل من معـينه من كتب السنة، متحـريا الصحيح عند الاسـتشهاد بالحـديث، ويحذر تلك الآفة التي وقع فيـها كثير من الوعاظ وخطبـاء المساجد في أكثر البلاد الإسلامية إنهم حاطبو ليل.

ومن فقه الداعية الموفق ألا يحـدث الناس بكل ما يعرفه من الأحاديث وإن كانت صحاحـا، إذا كان يفهم على غير وجهـه أو يورث احباطا عند النـاس. أو الرضا بالواقع، أو سلبية، أو يأسا، أو نحو ذلك.

* * *

المبحث السابع

معالم وضوابط لحسن فهم السنة النبوية.

١. فهم السنة في ضوء القرآن الكريم.

٢. جمع الأحاديث الواردة في الموضوع الواحد.

٣. الجمع أو الترجيح بين مختلف الحديث.

٤. فهم الأحاديث في ضوء أسبابها وملابساتها ومقاصدها.

٥. التمييز بين الوسيلة المتغيرة والهدف الثابت للحديث.

٦. التفريق بين الحقيقة والمجاز في فهم الحديث.

٧. التفريق بين الغيب والشهادة.

٨. التأكد من مدلولات ألفاظ الحديث.

أولا: فهم السنة في ضوء القرآن الكريم:

من الواجب لكي تفهم السنة فهما صحيحا، بعيدا عن التحريف والانتحال وسوء التأويل، أن تفهم في ضوء

القرآن، وفي دائرة توجيهاته الربانية، المقطوع بصدقها إذا أخبرت، وعدلها إذا حكمت ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾[1] فالقرآن هو روح الوجود الإسلامي، وأساس بنيانه، وهو بمثابة الدستور الأصلى، الذي ترجع إليه كل القوانين في الاسلام، والسنة النبوية هى شارحة هذا الدستور ومفصلته، فهى البيان النظري والتطبيق العملي للقرآن، ومهمة الرسول أن يبين للناس ما نزل إليهم. وما كان للبيان أن يناقض المبيَّن، ولا للفرع أن يعارض الأصل، فالبيان النبوي يدور أبدا في فلك الكتاب العزيز لا يتخطاه. ولهذا لا توجد سنة صحيحة ثابتة تعارض محكمات القرآن وبيناته الواضحة.

وإذا ظن بعض الناس وجود ذلك، فلابد أن تكون السنة غير صحيحة أو يكون فهمنا لها غير صحيح، أو يكون التعارض وهميا لا حقيقيا. ومعنى هذا أن تفهم السنة في ضوء القرآن .

---

(١) سورة الأنعام : ١١٥ .

ولهـذا كـان حديث " الغـرانيق" المزعـوم مـردودا بلا ريب، لأنه مناف للقرآن. وحديث " شـاورهن وخالفوهن للآيـة: ﴿فان أرادا فصالا عن تراض منهما وتشاور...﴾ وإذا اختلفت أفـهام الفقـهاء أو الشراح في الاسـتنباط من السنن فأولاها وأسعدها بالصواب ما أيده القرآن.

كما لابد أن نحذر من التوسع في دعوى معارضة القرآن -كما فعلت المعتزلة- دون أن يكون لذلك أساس صحيح. كنفى أحاديث الشفاعة.

ثانيا: جمع الأحاديث الواردة في الموضوع الواحد:

من اللازم لفـهم السنة فـهـمـا صـحيـحـا: أن تجـمع الأحاديث الـصحيـحة في الموضـوع الواحد، بحـيث يرد متـشابهها إلى مـحكمها، ويحمـل مطلقها على مقـيدها، ويفسر عـامها بخاصها، وبذلك يـتضح المعنى المراد منها، ولا يضرب بعضها ببعض.

وإذا كان من المقرر أن السنة تفسر القرآن الكريم، وتبينه بمعنى أنها تفصل مجمله، وتفسر مبهمه، وتخصص عامه،

وتقـيد إطلاقـه، فأولى ثـم أولى أن يراعى ذلك في السنة بعضها مع بعض.

ومثـاله الأحاديث التي وردت في إسبـال الإزار، وقد أريد بها في مجموعها (الخيلاء) وليست على إطلاقها.

لأن الاكتفاء بظاهر حـديث واحد، دون النظر في سائر الأحاديث، وسـائر النصوص المتعلقة بموضـوعه، كثيـرا ما يوقع في الخطأ، ويبعده عن جـادة الصواب، وعن المقصود الذي سيق له الحديث.

ثالثا: الجمع أو الترجيح بين مختلف الحديث:

الأصل في النصوص الشرعيـة الثابتة ألا تتعارض، لأن الحق لا يعارض الحق، فإذا افتـرض وجود تعارض فإنما هو في ظاهر الأمر لا في الحقيقة والواقع، وكان علينا أن نزيل هذا التعارض المدعى.

وإذا أمكن إزالة التعـارض بالجمع والتـوفيق بين النصين بدون تكلف واعتساف بحيث يعمل بكل منهما، فهو أولى

من اللجوء إلى الترجيح بينهما، لأن الترجيح يعني إهمال أحد النصين وتقديم الآخر عليه، ومثال ذلك أحاديث النظر من النساء للرجال، وزيارة النساء للقبور، والعزل.

رابعا: فهم الأحاديث في ضوء أسبابها وملابساتها ومقاصدها:

ومن حسن الفقه في السنة النبوية: النظر فيما بنى من الأحاديث على أسباب خاصة، أو ارتبط بعلة معينة، منصوص عليها في الحديث، أو مستنبطة منه، أو مفهومة من الواقع الذي سيق فيه الحديث.

لابد لفهم الحديث فهما سليما دقيقا من معرفة الملابسات التي سيق فيها النص، وجاء بيانا لها وعلاجا لظروفها حتى يتحدد المراد من الحديث بدقة ولا يتعرض لشطحات الظنون، أو الجري وراء ظاهر غير مقصود.

فلابد من التفرقة بين ما هو خاص وما هو عام، وما هو مؤقت وما هو خالد، وما هو جزئي وما هو كلي، فلكلٍ حكمه، والنظر إلى السياق والملابسات والأسباب تساعد

على سداد الفهم واستقامته لمن وفقه الله.

مثال ذلك: حديث "أنتم أعلم بأمر دنياكم" الذي ورد في قصة "تأبير النخل"[1] ولا يفهم فيه التهرب من أحكام الشريعة في المجالات المدنية ونحوها، وحديث "أنا برئ من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين "قيل: يا رسول الله ولم؟ قال: لا تتراءى نارهما"[2] فقد ورد في وجوب الهجرة من أرض المشركين إلى النبي ﷺ لنصرته. ومثل حديث " لا تسافر المرأة إلا ومعها محرم"[3] وحديث " الأئمة من قريش"[4].

ولذا كان للصحابة والتابعين منهج في النظر إلى علل النصوص وظروفها كموقف "عثمان وعلى" من ضالة

---

(١) صحيح أخرجه مسلم (٢٣٦٢)، (٢٣٦٣) وابن ماجه (٢٤٧١) وللحديث طرق أخرى.
(٢) سنن أبي داود، كتاب الجهاد (٣ / ١٠٥) والترمذى فى السير (٥ / ٣٢٩) وقال الألبانى هو حديث حسن، صحيح الجامع الصغير (٢ / ١٧).
(٣) صحيح أخرجه أحمد (١ / ٢٢١) والبخارى (٣ / ٢٤) ومسلم (٤ / ١٠٤).
(٤) أخرجه أحمد (١ / ١٣٩) وبنحوه فى البخارى (٨ / ١٠٥) ومسلم (٢ / ١٢١).

الإبل، وموقف عمر من عدم تقسيم الأرض المفتوحة، أو ما بنى من نصوص على "عُرف" تغير، مثل:" البر بالبر كيلا بكيل " فصار (وزنا بوزن)، وتقدير نصاب زكاة النقود بالذهب أو بالفضة وتغير العاقلة (الدية) في عهد "عمر رضي الله عنه"، وكذا النظر في أمر زكاة الفطر من حيث القيمة من عدمها، والوقت مع التوسع فيه.

كما ينبغي أن يراعي أيضا: السنة بين اللفظ والروح أو بين الظواهر والمقاصد.

خامسا: التمييز بين الوسيلة المتغيرة والهدف الثابت للحديث:

ومن أسباب الخلط والزلل في فهم السنة أن بعض الناس خلطوا بين المقاصد والأهداف الثابتة التي تسعى السنة إلى تحقيقها، وبين الوسائل الآنية والبيئية التي تعينها أحيانا للوصول إلى الهدف المنشود، فتراهم يركزون كل التركيز على هذه الوسائل، كأنها مقصودة لذاتها، مع أن الذي يتعمق في فهم السنة وأسرارها يتبين له أن المهم هو

الهدف، وهو الثابت والدائم، والوسائل قد تتغير بتغير البيئة أو العصر أو العرف أو غير ذلك من المؤثرات، كأحاديث الأدوية والأغذية والأعشاب والحبوب وغيرها مما وصفه النبي ﷺ للتداوي به في علاج بعض العلل والأمراض البدنية، وكذلك العدة في القتال وهي تتغير من عصر إلى عصر، ومن بيئة إلى أخرى، بل هي لابد متغيرة، فإذا نص الحديث على شيء منها (ألا إن القوة الرمي) فإنما ذلك لبيان الواقع، لا ليقيدنا بها، ويجمدنا عندها.

ومثل ذلك استخدام الفرشاة بدلا من السواك عند تعذره، والنظر في الهدف من حديث "لعق الاناء" والتقاط اللقمة التي وقعت، والأكل باليد، وحديث رؤية الهلال لاثبات الشهر، الذي قد يكون بالرؤية، ويمكن أن يكون حسابا فلكيا، ولا تمنع السنة ذلك، إن لم نجد فيها ما يدعو إليه، وهو قوله ﷺ "فاقدروا له قدره"[1] ودعوته للرؤية "صوموا لرؤيته" بالنظر إلى ما هو متاح وميسور آنذاك.

---

(١) صحيح أخرجه مسلم (٢٩٣٧ والترمذى (٢٢٤٠) وابن ماجة (٤٠٧٥).

سادسا: التفريق بين الحقيقة والمجاز في فهم الحديث:

اللغة العربية لغة للمجاز فيها نصيب موفور، والمجاز أبلغ من الحقيقة كما هو مقرر في علوم البلاغة، والرسول الكريم أبلغ من نطق بالضاد، وكلامه تنزيل من التنزيل فلا عجب أن يكون في أحاديثه الكثير من المجاز والاستعارة التمثيلية وكل ما يخرج باللفظ أو الجملة عن دلالتها المطابقية الأصلية. وإنما يعرف المجاز في الكلام بالقرائن الدالة عليه، سواء كانت قرائن مقالية أم حالية.

ومن ذلك ما ينسب فيه الكلام والحوار إلى الحيوانات والطيور والجمادات والمعاني.

وحمل الكلام على المجاز في بعض الأحيان يكون متعينا، وإلا زلت القدم، وسقط المرء في الغلط، كما قال ﷺ لنسائه " أسرعكن لحوقا بي أطولكن يدا "[1] وما جاء

---

(١) صحيح: اخرجه احمد (٦ / ١٢١) والبخارى (٢ / ١٣٧) ومسلم (٢٤٥٢) والنسائى (٥ / ٦٦).

في الحديث القدسي " إن تقرب عبدي إليَّ بشبر تقربت إليه ذراعا . . "[1] يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح . . "[2] وقوله ﷺ: "الحمى من فيح جهنم فأبردوها بالماء[3] الحجر الأسود من الجنة"[4] "اعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف"[5] وكذا الأم "إلزمها، فإن الجنة تحت أقدامها"[6].

كما ينبغي أن نحذر من التوسع في التأويلات المجازية،

---

(١) صحيح أخرجه أحمد (٢ / ٤٣٥) والبخارى (٩ / ١٩٢) ومسلم (٨ / ٦٦).

(٢) صحيح أخرجه أحمد (٢ / ٤٤٣) والبخارى (٦ / ١١٧) ومسلم (٨ / ١٥٢) والترمذى (٣١٥٦) وأحمد (٢ / ٢٦١)، (٢ / ٢٧٧).

(٣) صحيح أخرجه مالك (٥٨٧) وأحمد (٢ / ٢١) والبخارى (٤ / ١٤٧) ومسلم (٧ / ٢٣).

(٤) صحيح أخرجه أحمد (١ / ٣٠٧) والنسائى (٥ / ٢٢٦) وابن خزيمة(٢٧٣٣).

(٥) صحيح أخرجه أحمد (٤ / ٣٥٣) والبخارى (٢ / ٢٦) والحاكم (٢ / ٧٨) ومسلم (٦ / ٤٥).

(٦) حسن أخرجه أحمد (٣ / ٤٢٩) والنسائى (٦ / ١١) والحاكم (٢ / ١٤) وصححه، وحسنه الألبانى فى الارواء (٥ / ٢١) وصحيح الجامع (١٢٤٩).

وأن نرد التأويلات المرفوضة ولا كرامة، ونرد على من أنكر المجاز كذلك.

سابعا: التفريق بين الغيب والشهادة:

تعرضت السنة لموضوعات تتعلق بـ" عالم الغيب" بعضها يتصل بغير المنظور من عالمنا هذا مثل الملائكة الذين جندهم الله تعالى لوظائف شتى، ومثل الجن، ومنهم الشياطين، ومثل العرش والكرسي واللوح والقلم، وبعض هذه الغيبيات يتصل بالحياة البرزخية، والحياة الآخرة وما فيها كالحديث عن الميزان والصراط والشفاعة، والجنة ونعيمها، والنار وعذابها من حسى ومعنوي، إلى غير ذلك. وكل هذه الأمور أو جلها تعرض لها القرآن ولكن السنة المشرفة فصلت فيها وتوسعت فلا ينقل من ذلك إلا ما صح عنه ﷺ، وقد يذكر من الغيبيات ما يخالف مألوف الناس فلا ينكر لذلك، فقد قدر علماؤنا أن الدين قد يأتي بما يحار فيه العقل، ولكن لا يمكن أن يأتي بما يحيله العقل، فلا يتناقض صحيح المنقول، وصريح المعقول بحال من الأحوال.

وقد ذكر الإمـام الشاطبى في كتابه (الاعـتصام) أن من خـصال أهل الابـتداع والانحـراف ردهم للأحـاديث التي جرت غـير موافـقة لأغراضـهم ومذاهبهم، ويدعـون أنها مخالفة للمعقول، وغير جارية على مقتضى الدليل، فيجب ردها، ومن هنا رد المعتزلة الكثير من الأحاديث التي تحدثت عن سؤال الملكين في القـبر، وما يعـقب ذلك من نعيم أو عـذاب ، ومـوقفـهم من أحـاديث (الميـزان) و(الصـراط) ومـوقفـهم من رؤية المؤمـنين لله تعـالى في الجنة، وبعض الأحاديث التي تتحدث عن الجن وعـلاقتهم ببنى الإنسان. إلى غير ذلك.

والموقف السليم الذي يفـرضه منطق الإيمان ولا يرفـضه منطق العقل: أن نقول فى كل ما أثبته الدين من الغيبيات: آمنا وصدقنا، كما نقول في كل مـا جاء به من التعبديات: سمعنا وأطعنا. أجل، نؤمن بما جاء به النص ولا نسأل عن كنهه وكيـفه ولا نبحث عن تفصـيله، فإن عقولنا كثـيرا ما تعجز عن الإحاطة بهذه الأمور الغيبية، فإن الله الذي خلق

الإنسان لم يؤهله لمثل هذا الإدراك لأنه لا يحتاج إليه للقيام بمهمته في الأرض. والخطأ الأساسى الذي وقع فيه المنكرون هو قياس الغائب على الشاهد، والآخرة على الأولى، وهو قياس مع الفارق، فلكل دار قوانينها.

ثامنا: التأكد من مدلولات ألفاظ الحديث:

ومن المهم جدا لفهم السنة فهما صحيحا: التأكد من مدلولات الألفاظ التي جاءت بها السنة، فإن الألفاظ تتغير دلالتها من عصر لآخر، ومن بيئة لأخرى، وهذا أمر معروف لدى الدارسين لتطور اللغات وألفاظها وأثر الزمان والمكان فيها.

فقد يصطلح الناس على ألفاظ للدلالة على معان معينة، ولا مشاحة في الاصطلاح، ولكن المخوف هنا هو حمل ما جاء في السنة من ألفاظ (ومثل ذلك القرآن) على المصطلح الحادث، وهنا يحدث الخلل والزلل. ومن لم يراع هذا الضابط يقع في أخطاء كثيرة، كما نرى في عصرنا، ومن أمثلة ذلك كلمة "تصوير" أو "المصورين"

كما جاءت في الحديث، وفيها وعيد للمصورين بأشد العذاب، إذا أطلق هذا على المصورين في زماننا الذين يستخدمون الكاميرا، ويلتقطون الشكل المسمى بالصورة، وكما سمى عصرنا "العكس الفوتوغرافي" تصويرا، فقد سمى التصوير المجسم (نحتا) وهو ما عبر عنه علماء السلف بأنه (ما له ظل)وهو الذي أجمعوا على تحريمه في غير لعب الأطفال، فهل تسمية هذا التصوير نحتا يخرجه من دائرة ما جاءت النصوص من الوعيد في شأن التصوير والمصورين؟

الجواب بالنفي جزما فإن هذا التصوير هو أولى ما ينطبق عليه لفظ التصوير لغة وشرعا. والله أعلم.

* * *

الخاتمة

الحمد لله والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على سيد ولد عدنان، النبى محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، صلاة نرث بها أعلى درجات الجنان، بمنه وفضله وكرمه، فهو الحنان والمنان.

أما بعد...

فهذا كتابي " كيف نحسن التعامل مع القرآن والسنة"؟

-كما قلت- كان كتابا مقررا على طلاب كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بالجامعة العالمية شيتاغونغ / بنجلاديش.

والذي كان ملخصا لكتابيّ" كيف نتعامل مع القرآن"؟ لفضيلة الشيخ الغزالى و "كيف نتعامل مع السنة النبوية"؟ لفضيلة الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي، وقد أدرجت الكتاب في سلسلة الداء والدواء حيث كان عدم حسن التعامل مع القرآن أو السنة من أكبر أدوائنا، وأخطر علاتنا، وإن كانت العلات وفيرة، والأدواء خطيرة، لكن تكمن بقية العلات في هذا الداء الخطير، والمرض المستطير،

وهو عدم حسن التعامل مع القرآن الكريم أو السنة المطهرة، والذي نرجو من خلال هذه السلسلة المباركة أن نعالج أمراض أمتنا، وقد سبق أن صدر منها " أمراض الزمان وعلاجها في القرآن" مقدمة السلسلة "القرآن منهاج وعلاج" تمهيد من بعد المقدمة.

وهذا الكتاب " كيف نحسن التعامل مع القرآن والسنة"؟ وصدر منها كتاب" طاعون العصر: الفرقة بين المسلمين وعلاجها في كتاب رب العالمين" وكتاب " الغزو الفكري :الطاعون العصري" وكتاب " نوازل العصر في القرآن والسنة" وكتاب كيف الطريق إلى الله تعالى"؟ ثم كتاب" الوصايا العشر الكرام في سورة الأنعام" ولها تكملة أخرى تأتي تباعا - بإذن الله تعالى- حول وصايا القرآن وصفات المتقين، والله الموفق والمعين، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

كتبه

أبو حفص

عمر بن عبد العزيز قريشي

الفهـــرس

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية

٢٠٠٥ / ٥٧٨٠

إسلاميك جرافيك ٣٩٢٨٧٠٠ / ٠١٠١٥٥٥٩٢٧